بين الآثار الإسلامية

في العالم

بين الآثار الاسلامية في العالم

بقلم

الدكتـــور

محمد عبد العزيز مرزوق

أستاذ الآثار الاسلامية المساعد

بجامعة الاسكندرية

الاسكندرية

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

مطابع رمسيس بالاسكندرية — تليفون ٢١٩١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذه جولة سريعة ونظرة عاجلة : جولة بين الآثار الاسلامية فى العالم ، ونظرة الى الفن الذى يتجلى فى هذه الآثار ثابتها ومنقولها .

وقد قصدت بهذه الجولة وتلك النظرة أولئك الذين يعدون انفسهم لدراسة الآثار الاسلامية ، فهم واجدون فى هذه الصفحات القليلة عرضا موجزا للنواحى المختلفة لهذه المادة فيلمون بها هنا اجمالا قبل أن يدرسوها فيما بعد تفصيلا .

وقد قصدت بها أيضا الراغب فى الثقافة العامة فاعطيته هنا صورا صغيرة، حرصت على أن تكون واضحة المعالم والخطوط ، للجانب المادى من حضارة اجدادنا من المسلمين يستطيع بها أن يقف على أثرهم فى الصناعة وفى الفنون ، وقد تغريه هذه الجولة وتلك النظرة بمتابعة البحث فيزداد عدد الذين يعنون بدراسة هذا الفرع من فروع المعرفة .

والله أرجو أن اكون فى محاولتى هذه قد حققت ماهدفت اليه .

محمد عبد العزيز مرزوق

دراسة الآثار الاسلامية

دراسة الآثار القديمة من أبنية وتحف دراســة لم يعرفها الأقدمون ، ولم يهدفوا اليها ، بل هى ثمرة من ثمرات المدنية الأوربية الحديثة • وقد تجلت أولى خطوات هذه الدراسة أول ماتجلت فى جمع التحف المختلفــة التى أبدعتها الأجيال السابقة •

وقــد كان العرب كغيرهم من الأمم القــديمة يعنون باقتنــاء التحف القــديمة ، ولكنهم كانوا أول من اهتم بوضع ماجمعوه فى مكان معين ، وبترتيبه فى هذا المكان ، فكان لهم بذلك فضل انشاء أول متحف أثرى • وخير مثال نسوقه لتأييد ذلك هو متحف الخليفة الفــاطمى «[1]» المستنصر بالله «[2]» الذى كان يعيش فى القاهرة فى القرن الخامس الهجرى « الحادى عشر الميلادى » ، وقد توفرت فى هذا المتحف أهم خصائص المتاحف الأثرية كما نعرفها اليوم ، ولم يختلف عنها الا فى الغرض من انشائه ، فقد أنشأه المستنصر للمباهاة والافتخار ولم يهــدف من تكوينه الى أن يجعله مكانا للدرس أو للترويح عن النفس كما هو الحال فى المتاحف الحديثة «[3]» •

---

(١) الفاطميون الذين منهم هــذا الخليفة ينتسبون ـ على حد قولهم ـ الى السيدة فاطمة ابنة النبى محمد صلوات الله عليه وزوجة الامام على ، وقد كانوا على المذهب الشيعى ـ الذى سنشير اليه فيما بعد ـ راجع عن تاريخ الفاطميين كتاب الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » (القاهرة سنة ١٩٣٢) والمراجع التى يشير اليها .

(٢) القريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ص ٤٠٨ و ٤٢٥ (طبعة بولاق) ، وكنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٧ ـ ٦٥ (مطبوعات دار الآثار العربية ـ ١٩٣٧)

(٣) راجع بحثا عن المتاحف الأثرية ورسالتها فى المجتمع للمؤلف نشر فى العــدد السادس (يونيــه ١٩٤٤) من السنة الخامسة من مجلة الشــئون الاجتماعية التى تصدرها وزارة الشئون الاجتماعية .

ولم يعرف الغربيون المتاحف الا بعد أن عرفها العرب بنحو خمسة قرون أى قبيل القرن السادس عشر الميلادى عندما استيقظوا من سباتهم فى تلك الفترة التىاصطلح المؤرخون على تسميتها بعصر النهضة الأوربية ، وأخذوا ينظرون الى التراث الفنى لليونان والرومان نظـرة اعجاب امتزجت فيهـا عوامل التقديس التى اكتسبها هذا التراث بحكم القدم ، مع عوامل التقدير التى استحقها لأنه من صـنع أولئك الذين اتخذوهم لهم قادة فى حيـاتهم الجديدة يسيرون على هديهم ، وينسجون على منوالهم . وفى القرن الثامن عشر الميلادى ـ فى عهد الثورة الفرنسية التى هدمت الحواجز الفاصلة بين طبقات المجتمع الفرنسى ـ أصبحت قصور الملوك والأشراف بما حوته من تحف أثرية ملـكا للشعب ، وانقلب قصر اللوفر بما فيـه من نفائس شتى جمعها ملوك فرنسا فى العصور المختلفة الى متحف أهلى عظيم «[1]» ، وفى هذا القرن بالذات بدأت الخطوة الثانية من دراسة الآثار اذ أخذ فريق من العلماء يعنون بالبحث فى هذا التراث القـديم فولد بذلك علم الآثار بين جدران المتاحف أولا ، ثم اتسعت دائرته فشملت دراسـة العمائر القديمة ثم زادت اتساعا فاتجه العلماء الى التنقيب عن آثار المـاضى فى مظان وجودها .

ولقد أتى حين من الدهر لم تكن فيه الآثار الاسلامية شيئا مذكورا ، ولم يكن لها بين آثار الفراعنة واليونان والرومان والساسان والبيزنطيين وغيرها منآثار الأمم التى سبقت المسلمين أو لحقت بهم ـ مكانة ملحوظة ، ولعل ذلك راجع الى أنمعرفتنا بالحضارة الاسلامية كانت حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادى لاتتجاوز ماسجلته كتب التاريخ ، فلما ولد علم الآثار كما بينـا واستقام عوده ، وظهر التخصص فيـه ، اتجه فريق من العلماء الأوربيين الى دراسة الآثار الإسلامية ثابتها كالمساجد والقـلاع والقصور

(١) عن نشأة المتاحف الأوروبية راجع :

Kenyon, Libraries and Museums, London, 1930, p. 54-65.

وغيرها ، ومنقولهـا كالتحف المصنوعة من الخزف أو الزجاج أو الخشب أو المعادن أو الطنافس أى الأبسطة ذات الخمل Pile Carpets والمنسوجات وما اليها وما يتجلى فى هذه الآثار جميعا من فن ، كما عنوا أيضا بالتنقيب على تراث المسلمين وخيرشاهد على ذلك ماقام به هؤلاء العلماء من حفائر أثرية وما أخرجوه من مؤلفات قيمة وما أقاموه من معارض ومتاحف • ومنذ ذلك الحين بدأت تتجلى مكانة الفن الاسلامى بين الفنون ، وبدأت تظهر معالم الحضارة المادية التى أبدعها المسلمون أيام عظمتهم بينما نحن فى غفلة عن هذا التراث وأهميته •

على أننا منذ عشرين عاما تقريبا قد بدأنا فى مصر نعنى بهذه الدراسة عناية جدية فانشىء لها بجامعة القاهرة معهـد خاص يعتبر الأول من نوعه فى العالم ، هو معهد الآثار الاسلامية ، كما عنيت بتدريسها كليـة الآداب بجامعة الاسكندرية •

معالم التاريخ الاسلامى

لايمكن لدارس الآثار أن يستغنى عن التاريخ ، ففى ضوئه يستطيع أن يفهمها ، ومنه يقف على الظروف المختلفة التى أحاطت بانشائها أو بصناعتها، وفيه قد يجد وصف ما اندثر أو تخرب منها .

ولايستقيم فهم الآثار الاسلامية قبل معرفة معالم التاريخ الاسلامى . وأول هذه المعالم تاريخ النبى الذى أتى بالاسلام وهو محمد بن عبد الله صلوات الله عليه . ونستطيع أن نقسم تاريخه الى مراحل ثلاث : الأولى قبل بعثته ، والثانية قبل هجرته ، والثالثة بعد هجرته . وقد عاش فى الأولى والثانية فى مكة ، وعاش فى المرحلة الثالثة فى يثرب .

وأهم مايذكر عن المرحلة الأولى سفره وهو صبى الى بلاد الشام ، ثم خروجه وهو شاب فى الخامسة والعشرين الى تلك البلاد متجرا فى مال السيدة خديجة ، ثم زواجه من هذه السيدة . ولكل من هذه الحوادث أثر لاينكر فى حياته ، فالرحلة توقظ المواهب وتوسع المدارك . وتجارة القوافل تساعد على تكوين الشخصية فهى تحتاج الى الحزم والى المهارة فى اختيار المواضع التى يقضى فيها الليل ، والى تنظيم الحرس اللازم للقافلة ، والى معرفة الطرق التى يتوفر فيها الماء ، كما تفتقر أيضا الى الأمانة والذمة واللباقة فى معاملة الناس ، وقد دربت هذه التجارة الكثيرين من رجال قريش وأخرجت منهم عظماء اشتهروا فى الحرب وفى السياسة مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص . وللزواج الموفق أثر بعيد فى حياة الانسان ، وقد كانت السيدة خديجة زوجة صالحة آمنت بالنبى لأول قيامه بالدعوة فكان ذلك أكبر مشجع له على المضى فيها وأقوى باعث على زيادة قوته المعنوية والاستمرار فيما أوقف حياته عليه .

والمرحلة الثانية كانت مرحلة كفاح مرير فى سبيل نشر الدين الجديد الذى أوحى اليه به، وكانت المعارضة قوية، استمدت قوتها أكثر ما استمدتها

من الناحية الاقتصادية ، ولا عجب فقد كانت قريش ترى مصلحتها فى التمسك بالقديم لذلك اضطهدته وألحقت الأذى به وبمن تبعه ، وتحت ضغط هذا الاضطهاد دفع ببعض أتباعه الى الهجرة الى الحبشة ، وبعد ثلاثة عشر عاما من هذا الكفاح أسفرت دعوة النبى عن فشل ذريع واضطر الى الهجرة الى يثرب بعد أن أيقن أن قريشا لن تدخل فى دينه الا مكرهة .

والمرحلة الثالثة تعد من أهم المراحل فى تاريخ الاسلام ، فقد كانت هجرته الى يثرب ـــ المدينة ـــ علاجا مؤقتا للفشل الذى منيت به الدعوة فى شكل جديد . واستقر المسلمون فى وطنهم هذا ، واستلزمت الظروف هناك أن يصبح النبى داعيا دينيا وداعيا سياسيا أيضا فقد أصبحت فى يثرب أحزاب مختلفة : حزب المهاجرين الذين هاجروا من مكة ، وحزب الأنصار الذين نصروه من أهل يثرب ، وحزب المنافقين ـــ ان صح أن يكون للمنافقين حزب ـــ الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكيد له ، وحزب اليهود . وكان عليه أن يحقق التجانس بين هذه الأحزاب المختلفة ، وأن يخلق منها قوة يستعين بها على نشر دعوته وتثبيت أركان دينه ، فوضع لهذه الدولة الناشئة دستورا يجمع فيه بين المسلمين ومن يساكنهم فى المدينة حتى يتعاونوا معا ، وهذا الدستور أو « الصحيفة » كما تسميه المراجع التاريخية هو دستور مدون ، وتدوينه فى الحقيقة يدل على حرص شديد على التنظيم الدقيق الأمر الذى لم يكن مألوفا فى ذلك الزمن ، وأهم ماجاء فيه أنه اعتبر العرب أمة واحدة لا قبائل شتى ، فالقبائل المتعددة فقدت مقوماتها القديمة وأصبحت الآن تؤلف أمة واحدة تقف صفا واحدا فى وجه غيرها من الأمم .

واتخذ النبى مكانا عاما للاجتماع والعبادة فاستكملت هذه الأمة بذلك أهم مظاهر الدولة ، واتسع نطاق الدعوة عن ذى قبل فأصبحت تشمل النظم الاجتماعية والسياسية .

وهنا نقف قليلا عند مكان الاجتماع هذا الذى أنشأه النبى أو بعبارة أخرى عند المسجد الذى أسسه فى المدينة لكى يهيىء لهذه الدولة الجديدة

مكانا لاقامة شعائر الدين الجديد ، وللتشاور فى أمور السياسة ، ولا ينبغى أن ننسى أن المساجد كانت ولاتزال تؤدى هذين الغرضين الى اليوم . وهذا المسجد الذى عمل النبى بيديه فى بنائه ، وعاونه فى ذلك المهاجرون والأنصار كان بناء ساذجا يترجم فى بساطته عن بساطة الاسلام ، أقيم على قطعة من الأرض مربعة الشكل وأحيطت بجدران أسسها من الحجر وقوامها من اللبن ، وكانت قبلة المصلين فيه الى الشمال تجاه بيت المقدس ، وقد أقيمت فى هذه الجهة سقيفة من جريد النخل المغطى بالطين تعتمد على عمد من جذوع النخل ، وعندما تحولت القبلة الى الجنوب تجاه مكة أقيمت سقيفة أخرى فى الجنوب مثل السقيفة السابقة ، وبقيت السقيفة القديمة يستظل بها فقراء المدينة من المسلمين ، وبذلك أصبح للمسجد جزء مكشوف فى الوسط هو الصحن وظلتان احداهما الى الشمال والأخرى الى الجنوب، وقد دفعت سنة التطور الى وصل ما بين هاتين السقيفتين أو الظلتين بظلتين جانبيتين احداهما الى اليمين والأخرى الى اليسار حتى تزيد مساحة الجزء المسقوف فى المسجد «[1]» .

وكان النبى اذا خطب فى المسجد وقف الى أحد أعمدته ، وكان يستند الى الجذع اذا طال به الوقت ، وفى ذات يوم رآه رجل كان قد رأى من قبل منابر الكنائس فى الشام فقال : « لو أعلم أن محمدا يحمدنى فى شىء يرفق به لصنعت له مجلسا يقوم عليه فان شاء جلس ماشاء وان شاء قام » . وعلم النبى بذلك فأحضر الرجل وطلب اليه تحقيق ما يقترحه فصنع له منبرا من الخشب ذا ثلاث درجات«[2]» . وكان المسجد يضاء ليلا ساعة صلاة

---

(١) أثار مسجد المدينة جدلا بين علماء الآثار الاسلامية مداره هل أنشىء هذا البناء ليكون منزلا أم ليكون مسجدا ؟ — راجع :

A. Pederson, "Masdjid", Encyclopedia of Islam;

B. Van Berchem, "Architecture" Encyclopedia of Islam;

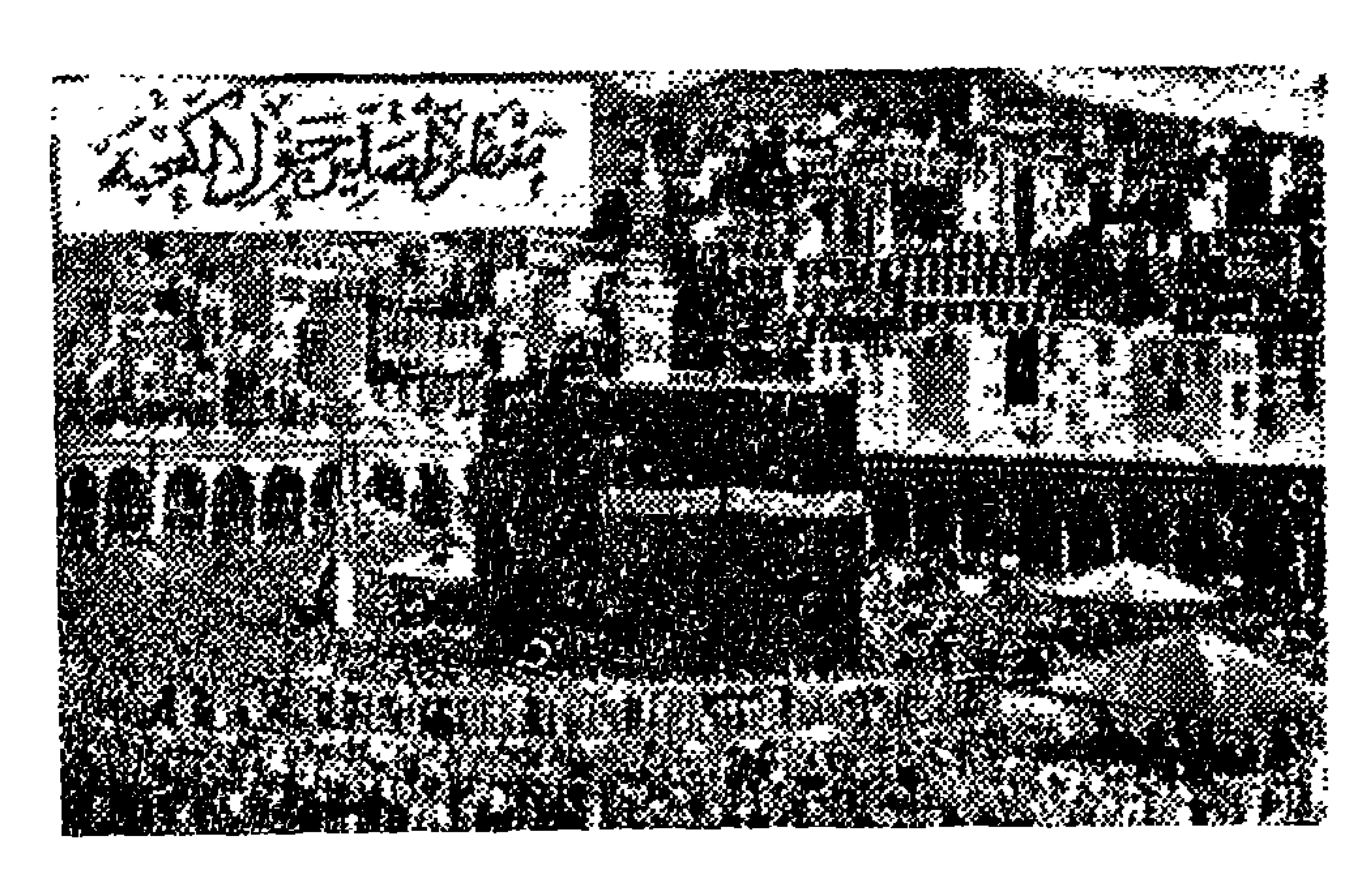
C. Creswell, Early Muslim Architecture, vol. I, p. 3-7, Oxford, 1932.

D. محمود عكوش : المسجد الاعظم بالمدينة . نشر تباعا فى مجلة الهندسة ثم جمع فى مجلد واحد .

(٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٥٤ (طبعة مصر)

العشاء فتوقد أعواد من القش لهذا الغرض ، ثم استعملت المصابيح فشدت الى جذوع النخل التى كانت تحمل سقف الظلتين .

من هذا المسجد الساذج الذى لم يبق منه اليوم الا البقعة التى شيّد عليها ، بل من هذه النواة نبتت تلك المساجد العظيمة التى يزدان بها العالم الاسلامى ، فقد اقتضت سنة التطور أن ترقى المساجد فى بنـائها وأثاثها : فبنيت بالحجر ، واتخذت عمدها من الرخام ، وظهرت فيها المحاريب الجميلة والمنابر العظيمة التى تلقى من فوقها الخطب الدينية والسياسية ، واستعملت الثريات النحاسية والزجاجية التى تبعث بأضوائها الى أرجاء المسجد ليلا ، بل وظهرت فيها أشياء جديدة لم تكن معروفة على عهد النبى مثل المقصورة التى تفصل بين الحاكم وبين غيره من المصلين وتوفر له بذلك مكانا أمينـا للصـلاة يحميه من اعتداء من تحدثه نفسـه بذلك ، ومثل الكرسى الذى يجلس عليـه من يقرأ القرآن أو يبلغ صـوت الامام الى المصلين ، ومثل الطنافس الجميلة التى تغطى أرضها بعـد أن كانت مفروشـة بالحصى أو الحصير .



١ — الكعبة المكرمة كما هى الآن

وأصبح النبى على رأس دولة قد اكتسبت من الاجتماع على دين واحد وحزب واحد ونظم واحدة وسلطان واحد قوة هائلة فاتجهت الى الكفاح

الخارجى ، واصطدمت أول ما اصطدمت مع مكة معقل الوثنية وخرجت من هذا الصدام ظافرة منتصرة ، ودخل الاسلام مكة وقضى على الوثنية ، وأصبحت الكعبة مقدسة فى الاسلام بعد أن أزيلت عنها الأصنام «(١)» وسمعت القبائل فى شبه الجزيرة العربية بهذا النصر ، واستقر فى أذهانهم أن محمدا أصبح قوة ينبغى أن يحسب حسابها ، ولما كان الحجاز هو مركزهم الاقتصادى والدينى ولا مفر لهم من الاتصال به فقد قدموا على المدينة ، ودخلوا فى الاسلام أفواجا وساد الاسلام فى شبه الجزيرة .

***

ومات النبى بعد أن نقل العرب فى مدى عشر سنوات نقلة بعيدة المدى نلمس أثرها فى دينهم الجديد وفى حياتهم الاجتماعية وفى نظامهم السياسى . وانتخب بعده أبو بكر للقيام بأمر المسلمين ، واشتد شعور العرب بقوميتهم فاتجهوا صوب أولئك الذين كانوا ينظرون اليهم فى الماضى نظرة القوى الى الضعيف والسيد الى المسود ، اتجهوا صوب الفرس وصوب الروم وكان خروجهم اليهما فى أنسب الأوقات لأن الحروب والفتن كانت قد أنهكت قواهما ، وسرعان ما سقطت الدولة الساسانية « دولة الفرس » ، وسرعان مافقدت الدولة البيزنطية « دولة الروم » معظم أملاكها . وفى الحق لقد كانت حركة الفتح هذه أمرا خارقا للعادة ، معجزا بالنسبة للعرب أنفسهم ولكنه الشعور القومى اذا استيقظ أتى بالمعجزات ، وهكذا ارتفعت أعلام الاسلام فوق فارس والعراق والشام ومصر .

---

(١) الكعبة بناء قائم وسط المسجد الحرام ، مربع الشكل ، يتكون من غرفة واحدة يرتفع سقفها عن سطح الأرض نحو خمسة عشر مترا ، وفى ضلعها الشرقى باب يوصل الى جوفها ويبعد عن سطح الأرض بنحو مترين ، ويوجد الحجر الأسود فى ركنها الجنوبى الشرقى من الخارج وهو يرتفع عن الارض نحو متر ونصف ، وقد كانت أصنام العرب المعبودة فى داخل الكعبة . وبعدظهور الاسلام أصبحت خالية من كل شىء ، ويصلى الناس بداخلها متجهين الى أى جهة من جهاتها الأربع .

وكانت هـذه الدولة التى وجدت بين عشية وضحاها فى حاجة الى التنظيم فى ادارتها ، لأن تنظيم الادارة مانع من الفوضى وباعث على استمرار التقدم ، ولقد رزقت لحسن حظها فى هذه الفترة الدقيقة من حياتها بعبقرية عمر بن الخطاب الادارية فكانت لها ضمانا من الاختلال • ولقد رأى عمر بثاقب نظره وحسن تقديره للأمور أنه أجدى على هذه الدولة الناشئة أن تثبت أركان النظم الادارية التى وجدت فى البلاد التى فتحها العرب من أن يكد ذهنه فى استنباط نظـام جديد ، ولذلك نراه يبقى على هـذه النظم القائمة ولا يمسها الا بقدر مايصلح مافيها من فساد ؛ ولا يغير فيها الا فيما يتصل بحفظ كيان العرب • ولقد جنى الاسلام من هذه السياسة الحكيمة مغانم كثيرة : مغانم روحية ، ومغانم اقتصادية ، ومغانم فنية •

أما المغانم الروحية فتتمثل فى انتشار الاسلام انتشارا عظيما دون أن تقصد الدولة الى ذلك ، وقد استتبع انتشار الاسلام انتشار اللغة العربية للتفقه فى الدين ، فصـار كل مسلم جديد يحرص على تعلم اللغـة العربية حرصه على الدين ، وباتحاد عنصرى اللغة والدين تعربت البلاد ، وأعانت المصاهرة على الاختلاط ونشأ عنها جيل جديد ينسب نفسه الى العرب • وقد استتبع انتشار اللغة العربية انتشار الخط العربى الذى اتخذ أداة لرسم حروف لغات الأمم التى آثرت الاحتفـاظ بلغتها الأصلية فى ظل الاسـلام فكتبت به اللغة الايرانية والهندية « الأردية » والتركية وغيرها •

وأما المغـانم الاقتصادية فنلحظها فى أن الفتح العربى لم يقطع سلسلة التقدم فى النواحى الزراعية والصناعية والتجارية ، بل احتفظت البلاد التى دخلت فى حوزة المسلمين بما كان لها من قبل من نشـاط اقتصادى ، فاذا اقتصرنا على ذكر الصناعة وجدنا أن صناعة المعادن التى حذقهـا الفرس ، وصناعة الخزف التى كانت راقية فى العراق ، وصناعة الزجاج التى اشتهرت بها بلاد الشام والاسكندرية ، وصناعة المنسوجات التى بلغت درجة عظيمة من الاتقـان فى مصر ؛ هـذه الصناعات كلها ظلت تسـير قدما فى طريق

النضوج فى ظل العرب الذين تعلموها وحذقوها ، ولم يقفوا عند الحد الذى كانت عليه بل ساروا بها الى الأمام خطوات واسعة ، وسموا بها فى مدارج الرقى أشواطا بعيدة ، وارتقوا بها الى درجات سامية من الاتقان والاجادة نلمسها عندما نقارن بين ماوصل الينا من مصنوعات فجر الاسلام ومصنوعات العصور الاسلامية التالية .

وأما المغانم الفنية فتتجلى لنا فى ذلك الفن الرائع الذى أوجدوه والذى [illegible]ب فى الفنون التى عاصرته أو أتت بعده دورا لاسبيل الى انكاره ، فقد شملوا برعايتهم رجال الفن فى الأمم التى فتحوها وقد استخدموهم فيما عرض لهم من أعمال تتصل بفنهم ، وعندما نضجت الملكة الفنية عند العرب أخذوا يمزجون بين عناصر الفنون التى عرفوها وصهروها فى بوتقتهم ثم أخرجوا منها فنا جديدا لايخفى علينا أصله ولكننا لانستطيع أن ننكر عليه شخصيته القوية الواضحة .

وقد اقترنت حركة الفتح العربى بانشاء الأمصار أى المدن التى أنشأها العرب فى البلاد التى فتحوها وهى البصرة والكوفة فى العراق والفسطاط فى مصر . وقد بنيت البصرة سنة ١٤هـ والكوفة سنة ١٧هـ : بنيتا بالقصب أولا ثم باللبن ، وكان أول مابنى فيهما المسجد وهذا أمر طبيعى لأن المسجد كما ذكرنا من قبل هو المكان الذى تبرم فيه أمور الدين والدنيا . وكانت فى مسجد الكوفة سقيفة ولكنها محمولة على عمد من الرخام نقلت الى المسجد من بناء قديم مهدم كان فى مدينة الحيرة «[1]» . واستخدام الأعمدة القديمة فى بناء جديد ظاهرة معمارية جديدة سار فيها العرب على النهج القديم الذى كان يسير عليه الرومان من قبلهم اذ كان هؤلاء ينقلون العمد اليونانية من المعابد القديمة الى معابدهم ولا يكلفون أنفسهم مشقة عمل عمد جديدة ، فنسج العرب على هذا المنوال وآثروا استعمال عمد الكنائس والمعابد المهدمة المهجورة فى مساجدهم على أن يصنعوا عمدا جديدة . وفى سنة عشرين

---

(١) تاريخ الطبرى ص ٢٤٨٩ من القسم الاول (طبعة ليدن)

بعد الهجرة بنيت الفسطاط فى مصر وخطط فيها مسجد عمرو الذى يعتبر أقدم المساجد فيها ، وقد ضاعت معالمه القديمة ولم يبق منه الا الأرض التى شيّد عليها ، ولكن المؤرخين قد أمدونا بصور متعاقبة له تتبين منها ماحدث فى تصميمه وزخرفته من تغيرات ، وهكذا يتعاون علم التاريخ مع علم الآثار فيحفظ الأول ما أتت عليه عوامل القدم أو الاهمال ، ويبقى الثانى على ما أهمل ذكره المؤرخون .

ولكن العرب لم يسكنوا الأمصار التى أسسوها فحسب ، بل نزلوا أيضا فى المدن القديمة ، وفىهذه المدن كان يحولون بعض المعابد والكنائس الى مساجد ، وآثار هذا التحويل لازالت واضحة فى المسجد الجامع بمدينة حماة «[1]» ، وفى بعض الأحيان كانوا يقتسمون أكبر الكنائس مع المسيحيين فيأخذون نصفها ويتركون لهم النصف الآخر ، والمسجد الأموى فى مدينة دمشق مثال لذلك ، فقد كان فى أول أمره معبدا وثنيا ، ولايزال سور هذا المعبد قائما حتىاليوم ، ثم بنى المسيحيون داخل هذا السور كنيسة عظيمة ، ثم جاء المسلمون واتفقوا على أخذ نصف هذه الكنيسة وجعلوا من هذا النصف مسجدا لهم ، ثم زاد عدد المسلمين وضاق بهم هذا المسجد فاتفقوا مع المسيحيين على أن يتركوا لهم نصفهم لقاء تعويض سخى ، وهدموا هذه الكنيسة كما هدموا المسجد وبنوا مسجدا عظيما يشمل كل المساحة الواقعة داخل أسوار المعبد القديم . ولقد كان من أثر تحويل بعض المعابد والكنائس الى مساجد أن العرب نقلوا الى مساجدهم من عناصر هذه الأبنية القديمة ما وجدوه ملائما ومتفقا مع شعائر دينهم ، وليست المئذنة فى الواقع الا واحدا من تلك العناصر ، فقد رأى العرب فى أسوار معبد دمشق القديم الذى أشرنا اليه صوامع مربعة الشكل قائمة فى الزوايا الأربع لسور المعبد ، ومرتفعة قليلا عن مستواه ، ووجدوا فى هذه الصوامع مكانا مناسبا لكى يدعى منه المسلمون للصلاة فاستخدموها لهذا

---

(١) Creswell, op. cit., vol I, p. 14.

الغرض ، ولاتزال حتى اليوم كلمة « صومعــة » تطلق فى بلاد المغرب على المئذنة ، بل ولا يزال شكل المآذن فى تلك البلاد على الخصوص مربعا كما كان الحال فى صوامع المعبد القديم فى دمشق «[1]» •

وقتل عمر بن الخطاب ثم قتل عثمان بن عفان الذى اتسعت فى عهده الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا ، وقد كانت العاصمة طوال العهد السابق فى المدينة المنورة ، ثم قتل الخليفــة الرابع على بن أبى طالب الذى اتخذ الــكوفة عاصمة له وقد انتهت بموته دولة الراشدين التى غلبت على خلفائها الخشونة فى العيش والتقلل فى الملبس والمطعم ، ولم يكن ذلك عن فقر ــ لأن كلا منهم كان صاحب ثروة عظيمة ــ ولكنهم فعلوا ذلك مواساة لفقرائهم ، وكسرا لشهوة نفوسهم ، أما ثرواتهم الضخمة فكان أكثر انفــاقها فى وجوه البر والخير «[2]» •

***

وجاءت الدولة الأموية الشرقية « ٤١ ــ ١٣٢ هـ» بعد دولة الراشدين، واتخذت دمشق عاصمة لها ، واتسعت فى أيامها رقعة الامبراطورية الاسلامية الى ضعف ما كانت عليه من قبل اذ نزل العرب حوض السند ، ثم نزلوا فى اقليم ما وراء النهر الواقع بين نهرى سيحون وجيحون ووصلوا الى وسط آسيا ، وأخذ الاسلام يزحف الى الصين ، وسار العرب غربا بعد أن فتحوا مصر فاستولوا على شمال أفريقية وزحفوا منهــا الى الأندلس وأصبحت امبراطوريتهم تمتد من المحيط الأطلسى غربا الى الهنــد وآسيا الوسطى شرقا • وقد أسس العرب خلال هذا التوسع مدينتين جديدتين هما القيروان فى تونس سنة خمسين بعد الهجرة ، وواسط فى العراق سنة ثلاث وثمانين وكلاهما أرقى من البصرة والــكوفة والفسطاط التى أسست مــن قبل •

---

(١) Creswell, op. cit., vol I., p. 38, 39, 104.

(٢) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص٦٦ (طبعة مصر سنة ١٣١٧ هـ)

وكان العرب قبل الاســلام يتعاملون بنقود الفــرس والروم وكانت نقود الفرس هى الدراهم الفضــية ونقود الروم هى الدنانير الذهبية . وقد ضرب عمر بن الخطاب الدراهم الاسلامية على نقش الدراهم الفارسية وزاد فيها عبارة « الحمد لله » أو « محمد رسول الله » أو « لا اله الا الله وحده » . ولما جاء عثمان كانت الزيادة « الله أكبر » . وكان شكل الدراهم غليظا قصيرا كما يقول المقريزى حتى جاء عبد الله بن الزبير فكان أول من ضرب الدراهم المستديرة ، وقد نقش على أحد وجهيها «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخــر « أمر الله بالوفاء » «[1]» . وقــد ظل التعامل بالنقود الرومية والفارسية قائما حتى عصر عبد الملك بن مروان الذى كان أول من ضرب النقود الاسلامية الخالصة التى لانصيب فيها لنقوش الفرس أو الروم وكان ذلك فى سنة ست وسبعين بعد الهجرة ، وقد هدد بقتل كل من يتعامل بغير النقود الاسلامية ، وبعث بالسكة أى الحديدة المنقوشة التى تضرب عليها الدراهم والدنانير الى أرجاء العــالم الاسلامى لتستخــدم فى عمل النقود ، وقد نقش على أحد وجهى الدرهم أو الدينار « لا اله الا الله وحده لاشريك له » ، وعلى الوجه الآخر « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد » وطوقهما بالآية الــكريمة « محمد رسول الله أرسله بالهــدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » وعلى الوجه الآخر « بسم الله ضرب هذا الدينار (أو الدرهم) فى ســنة ..... » «[2]» . أى أن عبــد الملك كان أول من اتخذ عملة رسمية من الذهب ومن الفضة لا يجوز التعامل بغيرها ، ويلاحظ أن الخلفاء الأمويين لم يثبتوا أسماءهم على النقود التى ضربت فى عصرهم واكتفوا بذكر التاريخ ، وتعتبر العملة الاسلاميــة من أهم مصادر التاريخ الاسلامى لأنها كثيرا ماتعاون البــاحث على تحقيق مايعرض له من وقائع

---

(١) المقريزى : النقود القــديمة الاسلامية ــ نشر الاب انستاس الــكرملى ص ٣١ ــ ٣٣ (القاهرة ١٩٣٩)

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ ــ ٣٦

تاريخية «[١]» • وازداد اقبال العرب على الحياة المدنية واضطرهم هذا الى تعريب الدواوين ، فقد ظلت لغة الدواوين غير عربية الى أن ولى الوليد ابن عبد الملك عرش الخلافة فعربها ، ولم يكن الانتقال الى اللغة العربية دفعة واحدة بل مر العرب بفترة استعملت فيها اللغتان الوطنية والعربية معا، ولم ينته عهد الدولة الأموية حتى ذاع استعمال اللغة العربية فى المكاتبات الرسمية •

***

وسقطت الخلافة الأموية بعد أن سلمت شعلة الحضارة الاسلامية الى الخلافة العباسية التى استمدت اسمها من العباس عم النبى صلوات الله عليه والجد الأعلى لأول خلفاء هذه الدولة أبى العباس عبد الله المعروف بالسفاح • وقد تعقب العباسيون أمراء بنى أمية وقتلوهم حتى أفنوهم الا أميرا واحدا استطاع أن يفر الى أفريقية ومنها الى أوربا وسوف يكون له شأن آخر سنتحدث عنه فيما بعد • ولن نبحث هنا فى أسباب سقوط الأمويين وقيام العباسيين بالتفصيل انما لابد أن نشير الى أمر واحد هو أن الأمويين جعلوا للعرب مكان الصدارة فى كل شىء ووضعوا الأمم التى دخلت فى الاسلام فى المحل الثانى من الأهمية مهما كانت مقدرتهم ، وقد أفادتهم هذه السياسة فى بادىء الأمر فأمنوا شر الفتن ولكنها كانت فى آخر الأمر من عوامل سقوطهم ، أفادتهم عندما حفظت عليهم كيانهم أمام تلك الشعوب المختلفة التى أخضعوها وجعلت لهم قوة تخشاها هذه الشعوب ثم أسقطتهم عن عرشهم عندما ضعفوا فى أواخر أيامهم ، ورأت تلك الأمم المغلوبة أن الفرصة قد سنحت لاظهار سخطها على الأمويين ، ووجدت فى أهل بيت النبى الذين كانوا يطمعون فى الخلافة معينا لهم فى حركتهم ، كما وجد أهل البيت فى هذه الأمم المغلوبة وخاصة الفرس قوة يحققون بها آمالهم ، وهكذا تعاون الطامعون فى الخلافة مع الناقمين على الأمويين من الفرس

(١) Lane - Poole, Catalogue of Arabic Coins in Khedivial Library at Cairo, 1897.

وأسقطوا الدولة الأموية • وحرص العباسيون على جعل الوراثة حقا ثابتا للفرع العباسى دون الفرع العلوى من أهل البيت على أساس أن الخلافة ميراث شرعى عن النبى ، وأنه حين توفى كان الوارث له عمه العباس لأن البنات لاتتولى الخلافة «[1]» • كما حرصوا أيضا منذ البداية على أن يصبغوا هذا الميراث بصبغة مقدسة فقالوا ان الخليفة يستمد سلطانه من آبائه الخلفاء ، من النبى ، من الله ، وأنه لذلك يعتبر ظل الله فى أرضه ، وبهذه الأسطورة حالوا بين الخلافة وبين السقوط عندما ضعفت وآل سلطانها الفعلى الى المتغلبين عليها من أمراء الجيش وغيرهم ، وبفضل هذه الأسطورة أيضا خلقوا فى نفوس الناس هيبة الخلافة فطال عمرها مايزيد على خمسمائة عام (١٣٢ — ٦٥٦ هـ) أى خمسة أضعاف عمر الخلافة الأموية السابقة تقريبا •

وقد بدأت الخلافة العباسية قوية ، واختار عبد الله السفاح اقليم العراق ليكون مقرا لها لأنه أقرب الى ايران صاحبة الفضل الأول فى تكوين هذه الخلافة ، ثم هو الى ذلك يعد واسطة العقد بين العنصرين الرئيسيين اللذين تتألف منهما الدولة الاسلامية : العنصر السامى (العرب) والعنصر الآرى (الفرس) ، وقد اتخذ مدينة الكوفة عاصمة له فى أول الأمر ثم انتقل منها الى الهاشمية التى أنشأها بالقرب من الكوفة ، ثم جاء الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور وأسس بغداد •

وقصة بناء بغداد هى فى الواقع صفحة فخار فى سجل الحضارة الاسلامية، واذا قارننا بين ما اتبعه العرب فى تخطيط البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط ، وبين ما اتبعوه فى تخطيط هذه العاصمة الجديدة لتبين لنا مدى التطور العظيم الذى طرأ عليهم ، فقد استدعى المنصور المهندسين وأفضى اليهم برغبته فى بناء عاصمة لملكه يكون فيها فى مأمن من الفتن ، ثم

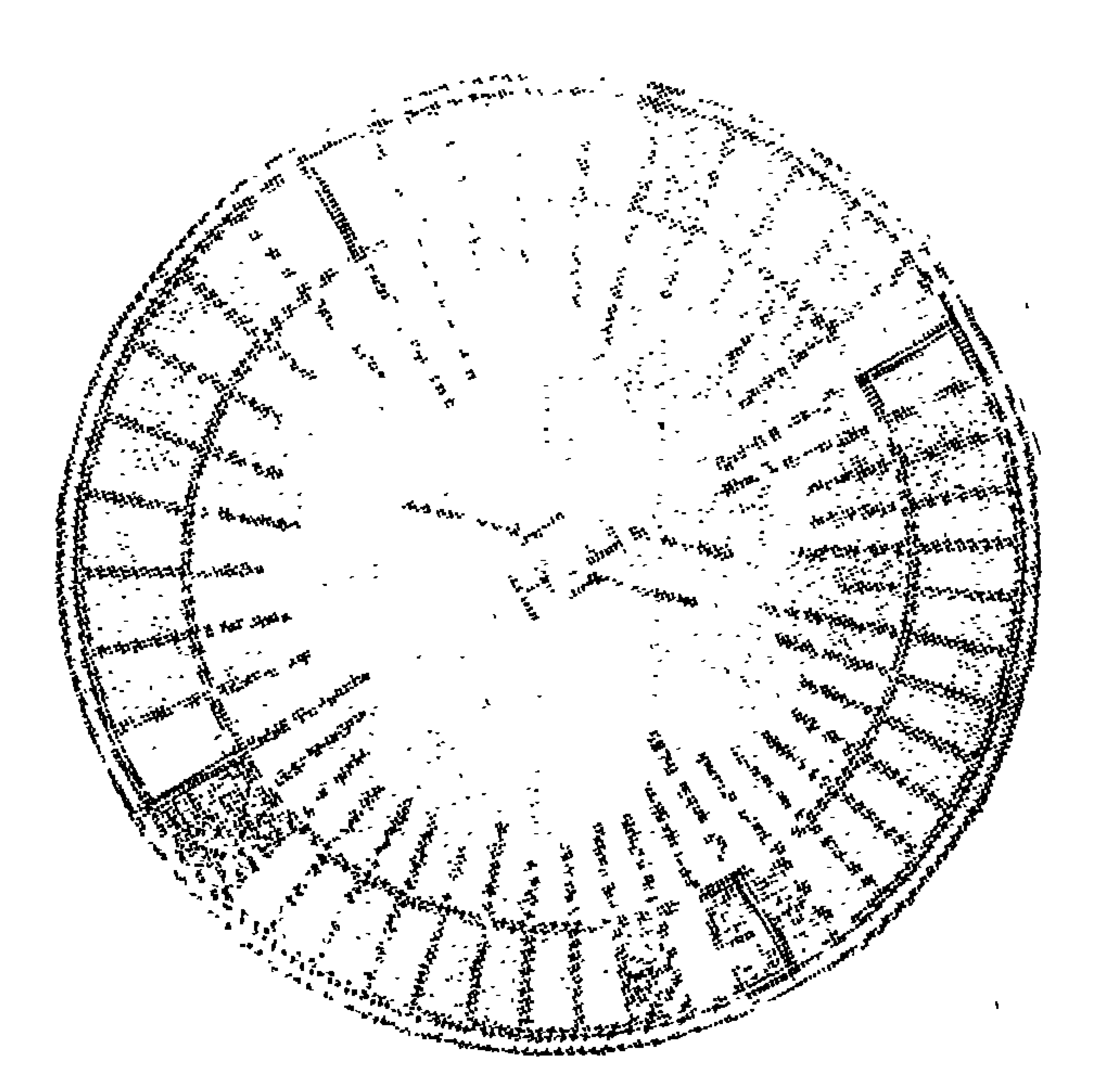
(١) كان للنبى عمان : أبو طالب وقد أنجب عليا زوج فاطمة ابنة الرسول والعباس وقد أنجب عبد الله وعلى ومحمد وهذا الأخير أنجب بدوره ابراهيم وعبد الله المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور ، وأول الخلفاء العباسيين هو السفاح سالف الذكر .

أمر بتجنيد الصناع والبنائين والمساحين من أنحاء مملكته الواسعة ، وطلب أن تخطط له المدينـة على الأرض فخططت بالرماد ثم وضـعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليهـا النفض وأشعلت النار فيها بغيـة ابرازها بشكل واضح ، وعرف المنصور رسمها ثم أمر بحفر أساسها وبدىء فى ذلك سنة خمس وأربعين ومائة بعـد الهجرة ، وفى العام التالى نزلهـا المنصور ونقل اليها دواوين الدولة وسماها مدينـة السلام أو دار السلام ولكنها ظلت تعرف باسمها الفارسى القديم «بغداد» الذى يعنى «عطيةالله» . وقد كانت من قبل قرية تقوم فيها للفرس أسواق عظيمة للتجارة ، وعندما بدأ العـرب فى غزو العراق أيام أبى بكر قصدت اليهـا جيوشهم بقيادة خالد بن الوليـد وهرب أهلوها تاركين وراءهـم أمتعتهم التى غنمهـا المسلمون «[1]» . وتعتبر مدينة بغداد من أبدع النماذج التى تسترعى النظر فى تخطيط المدن ، فقد كانت مستديرة يحف بها من الخارج خنـدق عميق يقوم بعده الى الداخل سور به أبراج ، ومن وراء هذا السور سـور آخر فيه أيضا أبراج كبيرة وصغيرة ، ثم الى الداخل بعد ذلك سور ثالث أعلى من السورين السـابقين وأعظم منهما سمكا وهو يحيط بالرحبـة المركزية للمدينة . والجزء الفاصل بين السورين الأولين (المشرف على الخنـدق والذى يليه) خال من الأبنية ليسهل مهمة الدفاع عن المدينـة ، أما الجزء الفاصل بين السور الثانى والثالث الذى يحيط بالرحبة فتقوم فيه منـازل السكان وتجرى بينها الطرقات كأنها برامق العجلة ولكل طريق منها اسم خاص، مستمد من أسماء بعض أصحاب الدور والبساتين . وكان للمدينة أربعة أبواب : باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وقد جعل المنصور على كل باب منها قائدا فى ألف رجل ، كما جعل لكل من هذه المداخل الأربعة بابا عظيما من الحديد لا يفتحه الا جماعة من الرجال ، وكان ارتفاع هذه الأبواب يقرب من خمسة أمتار لأن الفارس كان يدخل منهـا

---

(1) لسترانج «Le Strange» : بغداد فى عهـد الخلافة العباسية ــ ترجمة بشير يوسف فرنسيس ص ١٩و٢٠ (العراق ١٩٣٦)

بالعلم ، والرامح بالرمح الطويل من غـير أن يميل العلم أو ينثنى الرمح ، ويمتد من كل باب من هذه الأبواب الأربعـة طريق يوصل الى الرحبـة الوسطى ، وكان فوق كل باب مجلس مغطى بقبة عظيمة ذاهبـة فى السماء وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الريح لايشبه نظائره • وفى وسط الرحبة المركزية يقوم قصر الخليفة الذى يعرف بقصر باب الذهب والذى تتوسطه قبة عظيمة خضراء عالية ترى من أطراف بغداد ، على رأسها صنم على صورة فارس فى يده رمح يدور مع الريح حيثما دارت • والى جوار القصر يقوم المسجد الجامع ، ولم يكن يجـاور القصر والمسجد بنـاء الا دار الحرس وسقيفة كبيرة تقوم فى الجهة الشمالية بالقرب من باب الشام ويجلس تحتها صاحب الشرطة وصاحب الحرس »[١] •



٢ ـــ تخطيط بغداد القديمة عن كرسول

---

(١) Creswell, op. cit. vol. II p. 4-30.

وقد ظلت بغداد عاصمة للعالم الاسلامى خمسمائة عام فيما خلا فترة تبلغ خمسة وخمسين سنة انتقلت فيها العاصمة الى مدينة « سر من رأى » التى سنتحدث عنها فيما بعد .

والذى يؤسف له أن هذه المدينة قد ضاعت معالمها اليوم ، على أن الذى يعوضنا عن هذه الخسارة ما انتهى الينا من المراجع التاريخية التى بفضلها عرفنا تصميمها ووقفنا على حضارة المسلمين فيها . وقد أفسح العباسيون المجال أمام الشعوب المغلوبة فسووا بينها وبين العرب فى كل شيء ، وكان من أثر هذه المساواة حدوث انقلاب عظيم فى الحياة الاجتماعية والفنية ، فالواقع أن هذه الأمم المغلوبة على أمرها عندما سمت مكانتها الاجتماعية الى مستوى العرب ارتفعت معها تقاليدها ومناهجها فى الحياة ، ونظر الناس اليها نظرة تقدير واعجاب ، ولما كان سلطان الفرس عظيما اذ بفضلهم قامت هذه الدولة ، فقد أقبل الناس على الحياة الفارسية يقلدونها فى شتى نواحيها ، واندفعوا يصيبون الشيء الكثير من أسباب الترف الذى عرف عن الفرس ، ووفروا لأنفسهم وسائل المتعة والدعة ، وبالغوا فى اعداد الموائد وتفننوا فى ألوان الطعام ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفلوا بالأعياد الفارسية والاسلامية على السواء ، ولم يتركوا متعة من متع النفس أو لذة من لذات الحس الا أخذوا منها بالنصيب الأوفى ، وكتب الأدب والتاريخ حافلة بما يصور لنا هذا التغير الاجتماعى ، ولعل خير ما يعطينا صورة واضحة لهذه الحياة ويدلنا على مدى التأنق فى العيش كتاب « الظرف والظرفاء » الذى ضمنه أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشاء — أحد أئمة الأدب فى القرن الثالث الهجرى — قواعد السلوك وقوانين اللياقة فى المجتمع الاسلامى فى تلك الحقبة من الزمن التى بلغت فيها الحضارة الاسلامية غاية نضجها . ومما قفز بالحضارة المادية الى الأمام خطوات واسعة تركيز السلطة الفعلية للدولة فى يد الوزير بعد أن كانت مركزة فى يد الخليفة أيام الأمويين ، فالوزير الآن هو كل شيء أما الخليفة فقد تخفف من أعباء الحكم وانصرف الى حياة الدعة فى القصور ، واتخذ

لنفسه حاشية كبيرة من العبيد والجوارى اللائى كان لهن أثر بعيد فى ترقية الذوق الفنى ، وفى اذكاء الشعور بالجمال ، وفى تقدم الفنون الجميلة • وقد استتبع هذا اللون من الحياة التفنن فى ابتداع السلع المختلفة التى تستلزمها هذه الحياة المترفة من ملابس وطنافس وحلى وكؤوس وأوان وطرائف ، ولقد نسج الوزراء والأغنياء على منوال الخلفاء ، وسارت على هذا النهج أيضا الطبقة الوسطى من الشعب بقدر ماسمحت به لها مواردها •

وانقضى العصر الأول للدولة العباسية بوفاة المأمون ، وبدأ عصر جديد اصطلح على تسميته بالعصر التركى نظرا لتسلط الأتراك «١» على الخلافة ، وقد نجح العرب فى اخضاعهم فى عصر الدولة الأموية «٢» واتخذوا منهم بعد اخضاعهم حلفاء استعانوا بهم على حماية الحدود الشرقية للامبراطورية الاسلامية ، واعتنق الأتراك الاسلام وارتفعت مكانتهم الاجتماعية بعد اعتناقهم له الى مرتبة العرب و الفرس ، وقد وجد فيهم الخلفاء العباسيون جنودا أقوياء أبرياء من نزعة الاعتزاز بالقومية التى كانت غالبة على الفرس والتى كانت تهدد كيان الدولة ، فاستخدمهم المأمون ، واستكثر المعتصم من شرائهم وكان معظم الجيش المركزى للخلافة على عهده منهم أما الجيوش العربية فقد استغنى عنها وأسقط العرب من الديوان • وقد ترتب على كثرتهم هذه انشاء مدينة «سر من رأى» التى سوف نجوس خلالها بعد قليل ، والتى أصبحت عاصمة للخلافة العباسية مدة من الزمن ، ثم عاد الخلفاء الى بغداد وازدهرت فيها الحضارة المادية من جديد وخير مايشهد بذلك «دار الشجرة» التى أنشأها المقتدر فى قصر الخلافة ببغداد والتى استمدت اسمها من شجرة

---

(١) الأتراك قبائل شتى منهم النازلون فيما وراء النهر حتى حدود الصين الشمالية وهم الذين نتحدث عنهم هنا ، ومنهم الاتراك السلاجقة وسنذكرهم بعد قليل ، ومنهم المغول الذين أسقطوا الخلافة العباسية فى القرن السابع الهجرى ، ومنهم الأتراك العثمانيون الذين استقروا فى آسيا الصغرى ثم استولوا على القسطنطينية وقضوا على الدولة البيزنطية فى القرن التاسع الهجرى .

(٢) راجع ص ١٥ .

مصنوعة من الفضة فى وسط بركة كبيرة ، وكان للشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شــكل الثمار ، وعلى الأغصان أنواع من الطيور من الذهب والفضة اذا مر الهواء عليهــا أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير ، وعن يمين البركة تماثيل لخمســة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ومثلها عن يسارها وقــد ألبسوا أنواع الحرير وفى أيديهم المطارد ويتحركون على خط واحد فيظن أن كل واحد منهم الى صاحبه قاصد »(١) •

ودخلت الدولة العباسية فى دور الضعف ، وفقدت سلطانها السياسى على معظم ممتلكاتها ، وانقسمت امبراطوريتها الى دويلات كثيرة بعضهــا يعترف لها بالولاء الاسمى وبعضها مستقل عنها ، ويرجع هذا الانقسام الى ضعف شخصية الخلفاء العباسيين ، والى استيقاظ روح القوميــة ، والى بعد مركز هذه الدويلات عن الخلافة • ويلاحظ أن ضعف الخلفاء فى العصر التركى قد حمل الأتراك على الاســتبداد بهم فكانوا يعزلونهم ويولونهم ويعذبونهم ويقتلونهم ، وقد اضطر الخليفــة المستكفى بالله أن يستنجد بأسرة فارسية هى أسرة بنى بويه فخفت لنجدته وبدأ بذلك عصر جديد عاد فيه النفوذ للفرس بعد أن كان قد ضعف فى العصر التركى •

وبنو بويه على المذهب الشيعى ، وكلمة « الشيعى » تستحق أن نقف عندها قليلا لنعرف المقصود منها ، وهذا يتطلب منــا أن نرجع الى الوراء الى عصر وفاة النبى، فقد انقسم المسلمون الى فريقين : فريق الشيعة وكانوا يرون أن أهل البيت أحق بالخلافة ، ولما كان على هو زوج السيدة فاطمة ابنة الرسول فقــد كان فى نظر هؤلاء أحق بالخلافة من ســواه فهم اذن شيعة علىّ • ثم فريق أهل السنة وكانوا يرون أن الخلافة حق لأى مسلم

(١) لسترانج : بغداد فى عهــد الخلافة العباسية ترجمة بشــير يوسف فرنسيس ص ٢١٨ و٢١٩ • ومتز : الحضارة الاسلاميــة فى القرن الرابع الهجرى ــ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ص ١٨٢ جـ ٢ ــ (مصر ١٩٤٠)

تتوفر فيه الشروط المقررة لها ، وفشل الفريق الأول ونجح الفريق الثانى ، وأصبح أبو بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء كما رأينا ، وكتم الشيعة أمرهم ان طوعا وان كرها ولم يجاهروا بخصامهم للنظام القائم ، وفى عهد الدولة الأموية قتل الحسين بن على بالقرب من مدينة كربلاء فى العراق فى العاشر من المحرم سنة احدى وستين هجرية ، وقدهزت هذه الحادثة العالم الاسلامى هزا عنيفا اذ جعلت التشيع لأهل البيت مذهبا دينيا مناهضا للمذهب السنى يتربص به ويسعى للقضاء عليه ، كما أثارت فى النفوس شعورا قويا استغل لتقويض دعائم الخلافة الأموية ، ومنذ حادثة كربلاء أصبحت الشيعة تعارض كل من حكم من غير أبناء على ، فوجهت المعارضة أولا الى الأمويين وثانيا الى العباسيين لأنهم لم يكونوا من ذرية على وفاطمة . وقد كان العراق هو الموطن الأول للتشيع ثم انتشر منه الى بقاع كثيرة من العالم الاسلامى وأصبح المذهب الرسمى فى ايران منذ أوائل القرن العاشر بعد الهجرة . ويحاول بعض المستشرقين أن يفرق بين الشيعة وأهل السنّة فى موقف كل منهما من بعض مظاهر الفن الاسلامى كالتصوير «[1]» ، وهذا خطأ بيِّن يجب التنبيه عليه لأن كلا من هذين المذهبين ينظر الى هذه المسائل الفنية نظرة واحدة ، والخلاف الجوهرى بينهما انما يدور حول شخص الخليفة وما يتصل بهذا المنصب .

وكما استنجد الخليفة المستكفى بأسرة بنى بويه الفارسية لتنقذه من استبداد الأتراك فقد استنجد الخليفة « القائم » بالأتراك السلاجقة لكى ينقذوه من استبداد بنى بويه ، وقد لبى طغرل بك زعيم السلاجقة هذه الدعوة واستولى على بغداد وقضى على بنى بويه ، وبدأ بذلك عصر جديد للخلافة العباسية هو العصر السلجوقى أو العصر التركى الثانى . وقد خلع الخليفة على طغرل بك لقبا جديدا هو « السلطان » وقد شاع التلقيب به منذ ذلك الوقت للدلالة على من بيده القوة . وقد وحّد السلاجقة الشرق الاسلامى تحت حكمهم وشملت مملكتهم خراسان والعراق وشمال الشام

(١) Arnold, Painting in Islam, p. 11-15. Oxford, 1928.

وآسيا الصغرى وبلاد العرب ، وظلت مجتمعة حتى مات السلطان سنجر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة هجرية وتولى الحكم بعده سلاطين ضعاف انقسمت فى عهدهم الدولة الى فروع عدة استقل كل فرع منها عن الآخر ، ومن أشهر هذه الفروع فرع العراق وفرع الشام وفرع آسيا الصغرى ، وضعف فرع العراق وضعفت بضعفه الخلافة العباسية وأغارت عليها قبائل المغول وأخمدت أنفاسها وأزالوها من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة بعد الهجرة .

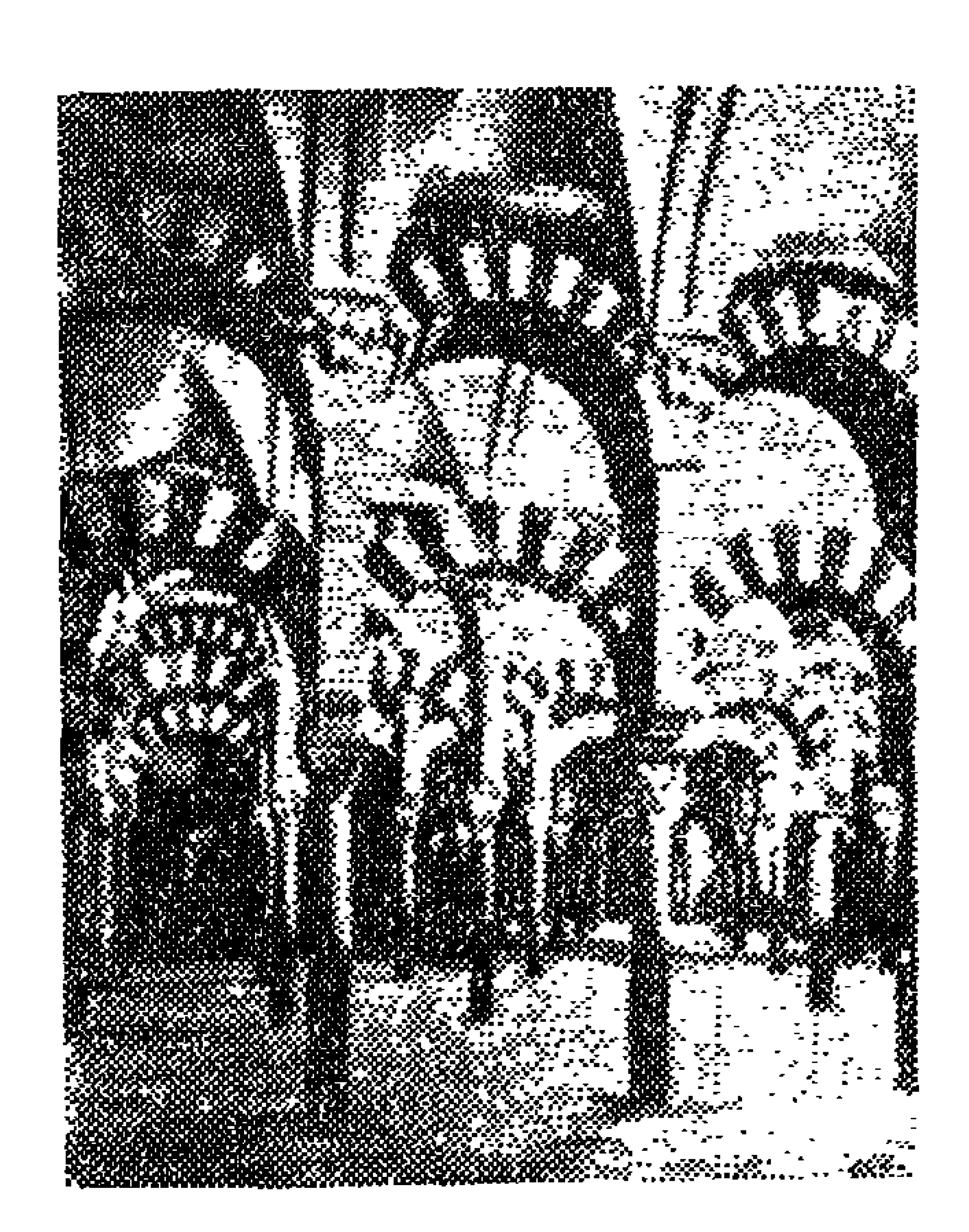
جولة بين الآثار الاسلامية فى العالم

بعد هذه الكلمة الموجزة عن معالم التاريخ الاسلامى نستطيع أن نخرج فى رحلتنا السريعة الى العالم الاسلامى نذرعه من غربيه الى شرقيه ونجوس فيه خلال الآثار الاسلامية التى أفلتت من يد الزمن .

فى الاندلس

وبلاد الأندلس هى أقصى ما ملكه المسلمون فى الغرب وقد فتحوها سنة اثنين وتسعين بعد الهجرة على يدى طارق بن زياد الذى خلّد اسمه على الصخرة الرابضة الى الجنوب ، وقد هاجر اليها الأمير الأموى عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام الذى فر من وجه العباسيين كما ذكرنا من قبل ، وقد أفلح هو وخلفاؤه فى تكوين دولة عظيمة فى الأندلس اتخذت من مدينة قرطبة عاصمة لها ، ووصلت البلاد فى عهدها الى ذروة التقدم وارتفع مستوى الحياة فيها الى مستوى بغداد فى أيام عظمتها . ثم ضعفت الخلافة الأموية واستقل كل أمير بما كان فى يده من ولايات فقامت فى البلاد عدة دويلات عرف عصرهم بعصر ملوك الطوائف ، وعلى الرغم من الانحلال السياسى الذى تجلى فى هذا العصر فانه يعتبر من أزهى عصور الحضارة الاسلامية لأن كل أمير كان يعمل جاهدا على منافسة قرطبة فى النواحى الفنية ، ويكفى أن نشير لتأييد ذلك الى القصر الذى شيده فى طليطله Toledo المأمون بن

ذى النون ، وقد ضاعت معالمه اليوم ولكن المقرى[1] قد احتفظ لنا بوصفه اذ يقول أنه كانت فى وسطه بحيرة وفى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وقد جلب المهندسون الماء على رأس القبة بتدبير محكم ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها فتصبح قبة الزجاج فى غلالة من ماء ، والمأمون قاعد تحت القبة لايمسه من الماء شىء وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب . ثم ظهرت على مسرح الأندلس دولة المرابطين ومن بعدهم دولة الموحدين ، وكلاهما قام فى بلاد المغرب أولا وبينهما تشابه كبير، فقد وضع أساس كل منهما داعية دينى التف حوله خلق كثيرون آمنوا بدعوته وتحمسوا لهـا ودفعهم حماسهم للغزو فكونوا دولة عظيمة كان مسرحها بلاد المغرب ثم ضمت الأندلس الى أملاك كل منهما ، ولم تطل مدة المرابطين فى الحكم كمـا طالت مدة الموحدين ، وبفضل المرابطين انتقلت الحضارة الأندلسية الى بلاد المغرب ، وبفضل الموحدين تأثر الفن الأندلسى



٣ — مسجد قرطبة من الداخل (الاندلس)

(١) المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب جـ ٤ ص ٢٨٣ و٢٨٤ (طبعة دار المأمون سنة ١٩٣٦)

بكثير من المؤثرات الأجنبية عليه . ثم تقلصت دولة العرب فى الأندلس وانكمشت فى اقليم غرناطة التى كان يحكمها بنـو الأحمر ، وأخيرا طرد العرب من البلاد بعد أن تركوا وراءهم آثارا عدة تشهد بحضارتهم السامية من أشهرها المسجد الجامع بقرطبة ، وأطلال مدينة الزهراء التى كشفت عنها الأبحاث الأثرية سنة ١٩١٤ ، والتى تستحق منا أن نقف عندها قليلا لأن قصة انشائها تضيف الى سجل الحضارة الاسلامية صفحات فخـار . وقد بنى هذه المدينة عبد الرحمن الناصر استجابة لرغبـة جاريته الزهراء سنةخمس وعشرين وثلثمائة ،وجند لها كل ماوصلت اليه يداه ، فأوقف على العمل فى عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لهـا من روما والقسطنطينية وأفريقيـة أعمدة الرخام المختلف الألوان التى بلغت عدتها أربعـة آلاف وثلاثمائة وستة عشر عامودا ، وأقام فى قصر المؤنس حوضا من الرخام جلبه من القسطنطينية وزينه بنقوش مذهبة بها صور آدمية ، وجعل عليها تماثيل مختلفة من الذهب المرصع بالدر صنعت فى دار الصناعة بقرطبـة ، وجعل سقف قصر الخلافة وجدرانه من الرخام ذى الألوان الصافية ، وقراميده من الذهب والفضة ، وأنشأ فى وسطه صهريجا عظيما مملوءاً بالزئبق ، وجعل للقصر فى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنـايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب ، وقامت هذه الحنايا على أعمدة من الرخام الملون والبللور الصـافى وكانت الشمس تدخل من تلك الأبواب فيضرب شعاعها جدران القصر فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وقـد اتخذ الناصر فى هذه المدينة محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ،ومسارح للطير مظللة بالشباك . واتخذ فيها دورا لصناعة آلات الحرب والحلى وغير ذلك من المهن «[١]» .

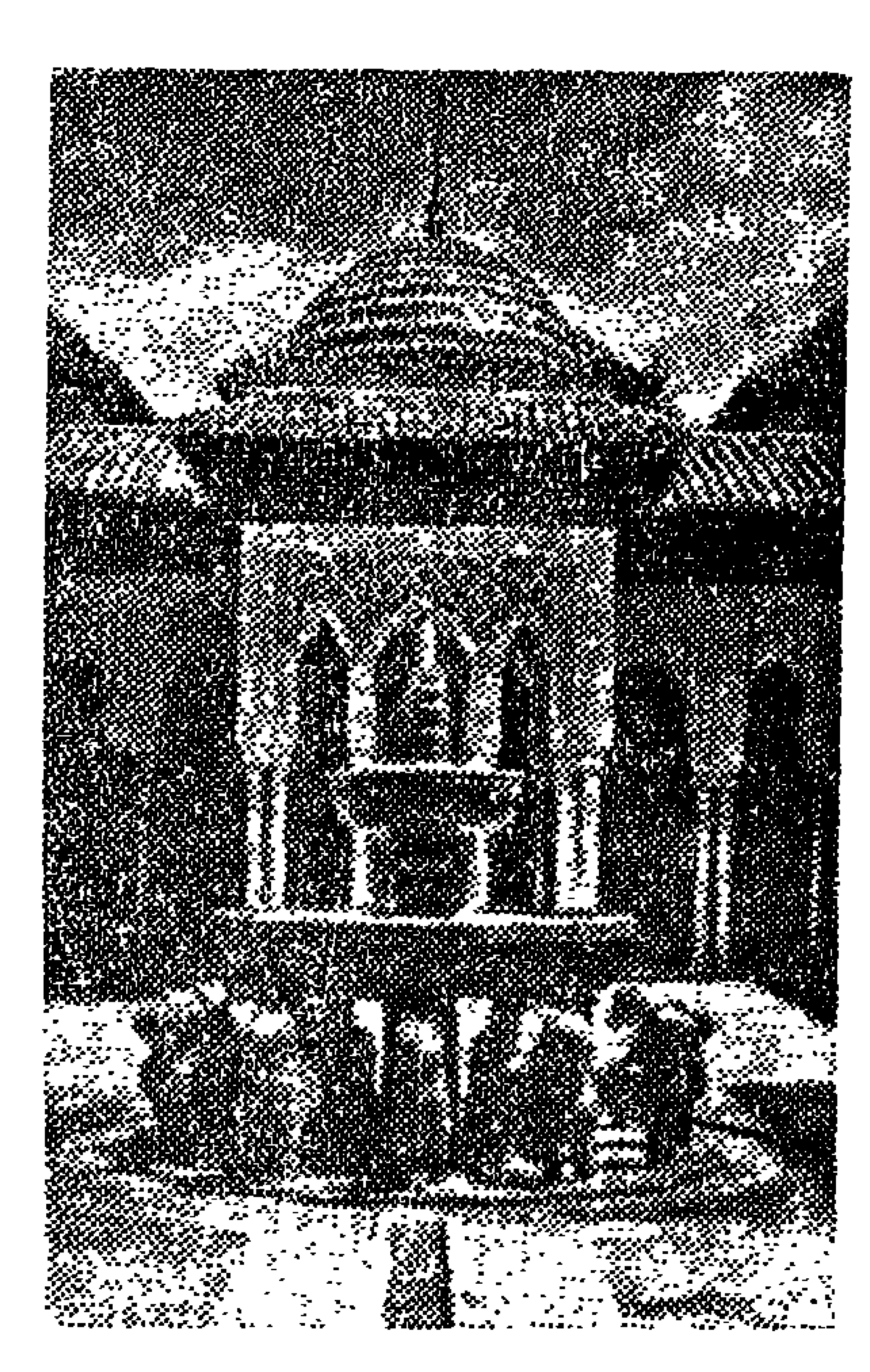
ومن آثار الموحدين بالأندلس مئذنة المسجد الجامع بمدينة أشبيليه (Sevilla) التى تعرف اليوم باسم الجيرالدا ، وقـد تحول المسجد الى

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٥ ص ٨٤و٨٥ (طبعة دار المأمون)

كنيسة كبيرة واحتفظت المئذنة بشكلها القـديم فيما خلا قمتها التى أضيف اليها برج للأجراس .

ومن أشهر الآثار الاسلامية فى العالم قصر الحمراء الذى شيده بنو الأحمر فى مدينة غرناطة ، وقد شاءت الأقدار أن ينجو هذا القصر من عبث العابثين فلا تزال حدائقه الغناء التى من أشهرها حديقة عائشة ، وساحاته الفسيحة التى من أروعها ساحة البركة وسـاحة السباع ، وقاعاته الرائعة التى من أجملها قاعة الأختين وقاعة قمارش وقاعة بنى سراج ، وحمّامه الجميل ـ هذه كلها لاتزال حافظة لرونقها ناطقة بما وصل اليه المسلمون فى العمارة والفن من السمو والتقدم .



٤ ـ ساحة السباع بقصر الحمراء
(الاندلس) عن كونل



٥ ـ علبة عاج مؤرخة ٣٥٨ هـ
(الاندلس) عن كونل

فاذا انتهينا من زيارة هذه الآثار أمكننا أن نزور ما فى أسـبانيا من متاحف أثرية ففيها كثير من التحف الاسلامية المصنوعة من الخزف أو المعادن

أو العاج أو غيرها من المواد • ولقد أعجب الاسبان فى العصور الوسطى بالتحف العاجية فأبقوا على ماوصل اليهم منها وحفظوا فيها مايعتزون بهمن مخلفات دينية وبهذه الوسيلة وجد بعض هذه التحف العاجية سبيله الى الكنائس حيث استقر هناك فى حرز أمين بعيدا عن عبث العابثين •

فى مراكش

ولنعبر الزقاق (مضيق جبل طارق) الى المغرب الأقصى أو مراكش كما نسميها ، وقد بدأ الاسلام فيها متأخرا عن باقى بلاد المغرب لبعدها ، وثبتت قواعده على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان على يدى واليه حسان بن النعمان فى سنة سبع وسبعين بعد الهجرة وجعل حسان اللغة العربية لغة رسمية للبلاد وأقبل الناس على تعلمها وسرعان ماذاعت بينهم وأصبحت لغة التخاطب بين الأكثرية الساحقة ، وقد خطب بها طارق بن زياد القائد المغربى فى جيشه المكون من المغاربة كذلك، خطبته الشهيرة : « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم ••• » وقامت فى البلاد دولة الأدارسة التى أسسها ادريس بن عبد الله بن الحسن الذى فر من وجه الخليفة العباسى المهدى الى هذه البلاد حيث استعان بقبائل البربر على تأسيس دولته ، وقد أنشأ مدينة



٦ ــ مدرسة العطارين بفاس (مراكش) عن مارسيه

فاس سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وتعد هذه المدينة من أغنى بلاد العالم الاسلامى بالآثار المعمارية القيمة التى من أهمها مسجد القرويين ومكانته فى بلاد المغرب كمكانة الجامع الأزهر عندنا ، ومنها مدرسة الصفّارين والمدرسة العنانية ومدرسة الصهريج ومدرسة العطارين وهذه المدارس من عهد دولة بنى مرين التى حكمت البلاد بعد الموحدين . أما مدينة مراكش التى أسست سنة أربع وخمسين وأربعمائة على أيدى المرابطين الذين أسلفنا الاشارة اليهم ففيها جامع الكتبية الذى أسسه الموحدون الذين أشرنا اليهم من قبل ، كما أسسوا أيضا مدينة رباط الفتح وهى العاصمة الادارية وبها قصر عظمة سلطان مراكش ، ولا ننسى ونحن نغادر هذه البلاد أن الموحدين قد أدخلوا فيها صناعة الحرير والورق والزجاج وأن المؤرخ العظيم ابن خلدون والرحالة الشهير ابن بطوطة قد عاشا فى كنف دولة بنى مرين .

فى الجزائر

واذا اتجهنا فى سيرنا شرقا وصلنا الى المغرب الأوسط أو بلاد الجزائر، وقد قامت فيه دول اسلامية مختلفة من أهمها دولة الرستميين وهم طائفة من الخوارج«[1]»وقد اتخذوا مدينة تاهرت عاصمة لهم، ثم قضى الفاطميون ـ وهم من الشيعة «[2]» ـ على ملك الرستميين واضطروهم الى النزول الى الجنوب ، ولما انتقل الفاطميون الى مصر واتخذوها مركزا لخلافتهم عهدوا بحكم البلاد الى بنى زيرى وبنى حماد وكلاهما من قبيلة صنهاجة البربرية التى قامت بأمر الدعوة الفاطمية فى البلاد وقد ارتقت الجزائر فى عهدهما رقيا عظيما، وخلّفوا وراءهم آثارا لاتزال خرائبها باقية حتى اليوم ، أما الآثار

(١) الخوارج طائفة من جند على بن أبى طالب خرجوا عليه ـ ومن هنا سموا بالخوارج ـ عندما وافق على التحكيم أثناء حربه مع معاوية بن أبى سفيان لانهم رأوا أن التحكيم خطأ اذ أن قبوله معناه الشك فى أحقية على فى الخلافة الامر الذى أضعف من حجة على ، وقد حاربهم على ولكنه لم يقض عليهم وأصبحوا فرقا مختلفة منها فرقة الاباضية التى لايزال اتباعها فى بلاد المغرب .

(٢) راجع : هامش ص ٤ ؛ ص ٢٢ ـ ٢٣

الاسلامية التى لاتزال تحتفظ برونقها فنراها فى مدينة تلمسان ، والعباد والجزائر . فالمسجد الجامع فىالأولى شيده المرابطون وزاد فيه الموحدون، ومدفن سيدى أبى مدين والمسجد الملحق به بمدينة العباد قد شيد فى عهد بنى مرين ، ثم المسجد الجامع فىمدينة الجزائر الذى شيد فى عهد المرابطين وقد جدد بناؤه وتغيرت معالمه فى العصور التالية ، وأقدم مافيه هو المنبر الذى يحمل تاريخ صنعه وهو سنة تسع وأربع مائة «[١]» .



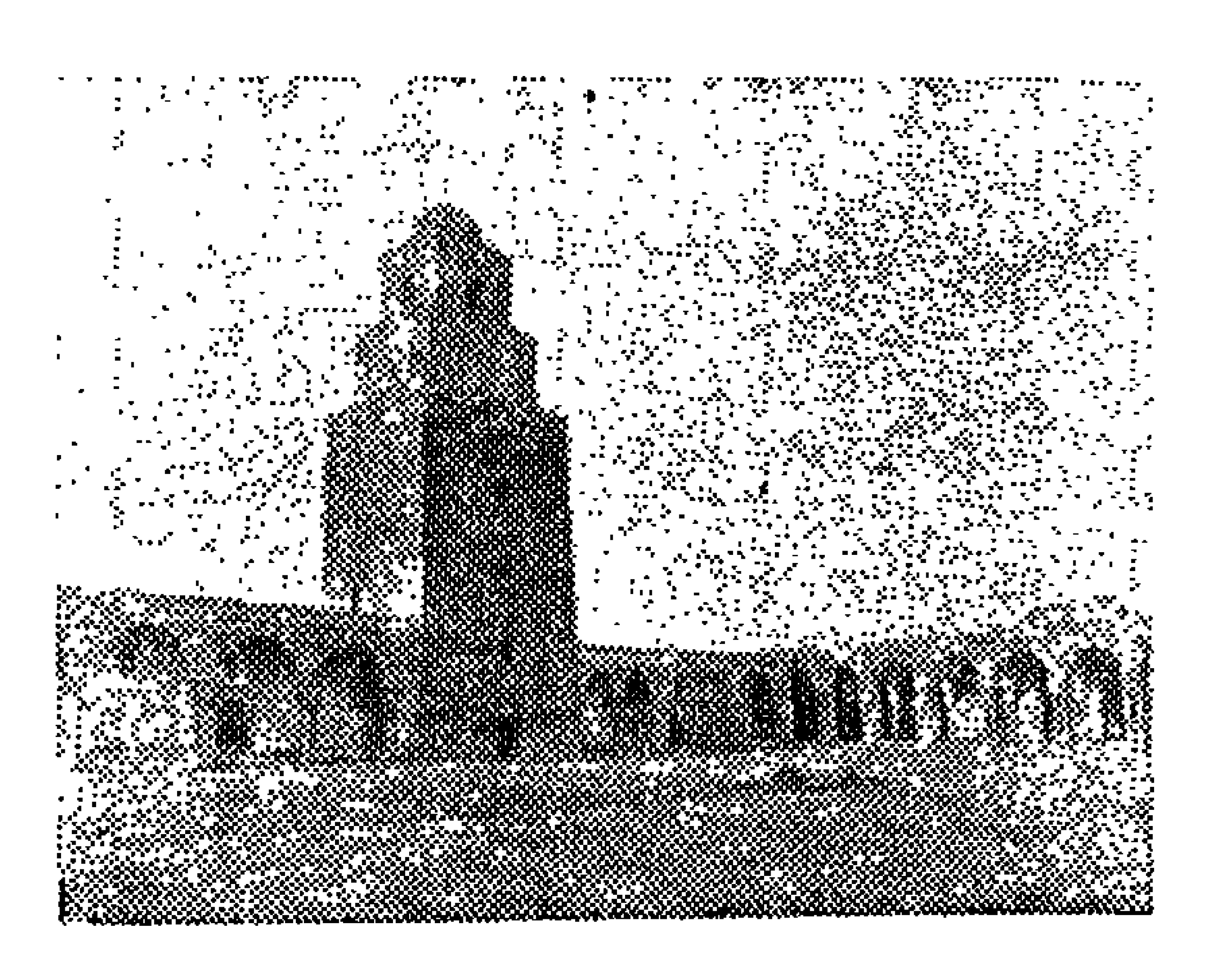
٧ — المسجد الجامع فى تلمسان (الجزائر)
عن مارسيه

فى تونس

وتقع تونس الى شرقى الجزائر ، وكانت تعرف فى العصور الوسطى باسم افريقية ، وهى أعرق أقاليم المغرب فى الاسلام وقد فتحها العرب سنة سبع وعشرين بعد الهجرة وأعيد فتحها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين بعد الهجرة وقد أسس بها مدينـــة القيروان أقدم العواصم الاسلامية فى المغرب وبنى بها مسجده الشهير ، ثم أعيد غزو البلاد مرة أخرى على يدى حسّان بن النعمان الذى قضى نهائيـــا على شوكة البربر وأسس بجوار

(١) Marçais, La Chaire de la Grande Mosquée d'Alger, Hesperis, 4e Trimestre, 1921.

قرطاجنة قرية صغيرة جعل منها قاعدة بحرية وشيّد بها دارا لصناعة السفن مستعينا فى ذلك بعمال من مصر ثم أخذت هذه القرية تكبر وتتسع حتى عظمت وعرفت باسم تونس وخطط فيها ابن الحبحاب مسجد الزيتونة سنة أربعة عشرة ومائة بعد الهجرة . واستقل الأغالبة بالبلاد وسطروا فى تاريخها أروع الصفحات «[1]» ، وأجمل مافى تونس اليوم من الآثار الاسـلامية اما ردوا اليه الحياة فى أجمل صورها واما انشأوه وتفننوا فى انشائه ، فمسجد عقبة بالقيروان قد خرج عن سذاجته الأولى ولبس على أيديهم حلة رائعة



٨ — صحن ومئذنة المسجد بالقيروان (تونس)
عن كونل

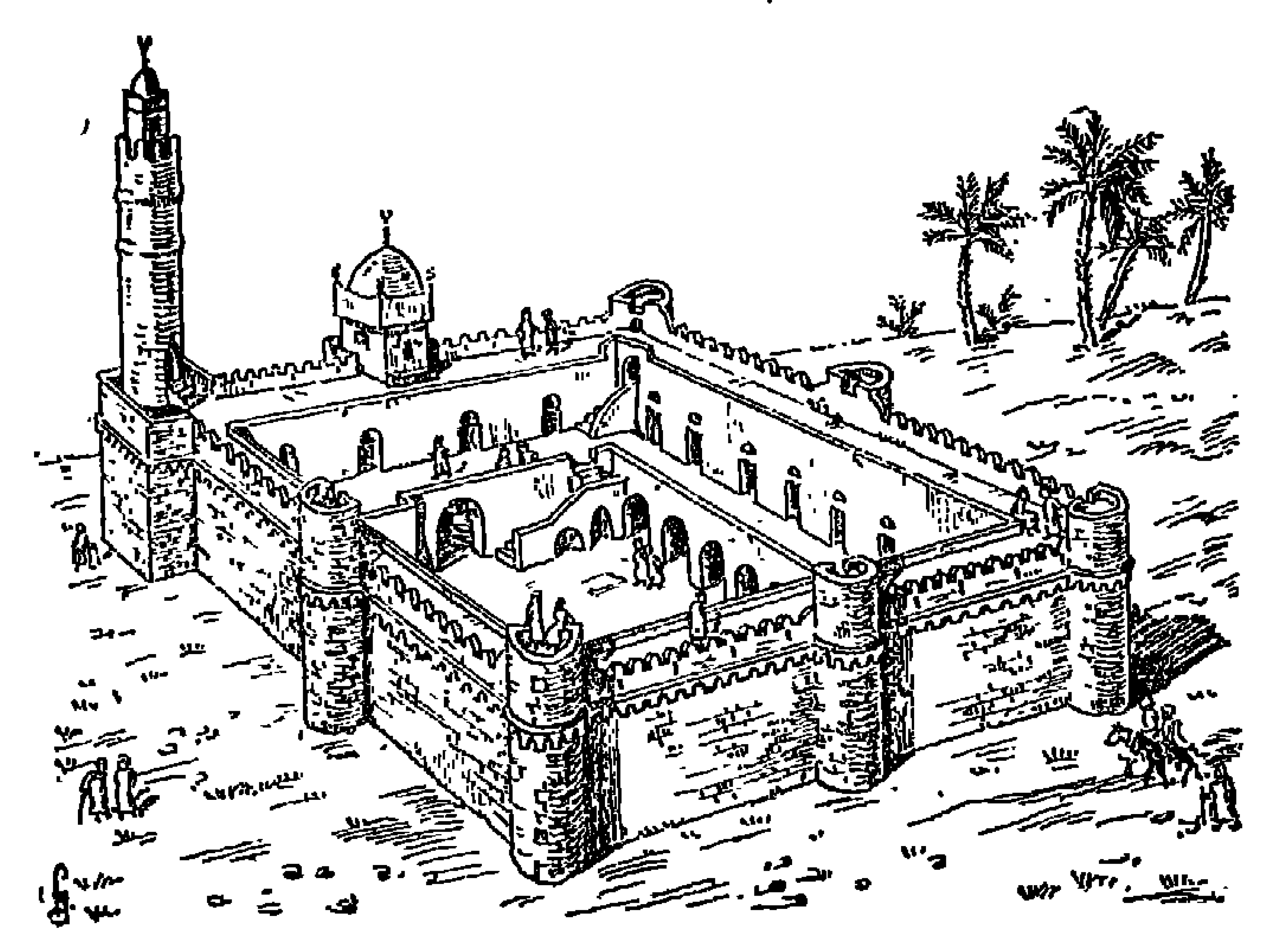
من الجمال . وتعد مئذنته أقدم ما فى العالم الاسلامى من المآذن وقد اتخذت مثالا يحتذى فى بناء المآذن بمساجد المغرب والأندلس ، وأسبغ الأغالبة على مسجد الزيتونة أثواب الجمال الفنى ، وأنشأوا فى مدينـة سوسة المسجد الجامع والرباط «[2]» ومسجد أبى فتاته وكلها لاتزال قائمة تنطق بعظمتهم،

---

(١) أسس دولة الاغالبة ابراهيم بن الاغلب الذى طلب الى هارون الرشيد ان يجعل الحكم وراثيـا فى اسرته نظير أربعة آلاف دينـار فقبل الرشيد ذلك مشترطا موافقة الخليفة على من يتولى الحكم من أفراد الاسرة .

(٢) الرباط فى الاصل معناها ارتباط الخيل بازاء العدو فى الثغور ، ومنه

ثم بنوا المـاجل العظيم أو « فسقية الأغالبة » وهو صهريج كبير مستدير تتجمع فيه مياه الأمطار ليشرب منه أهل القيروان . ولم تكن تونس فى نظر الفاطميين الذين جاءوا بعد الأغالبة سوى قنطرة عبروا منها الى مصر التى كانوا يمدون أبصارهم اليها ويتوقون الى الاستيلاء عليها للانتفاع بخيراتها وبموقعها فى نشر مذهبهم الدينى ، وأهم مايذكر لهم فى تونس مدينة المهدية التى تحمل اسم مؤسس دولتهم أبو عبيد الله المهدى، ويدل تأسيسها ــ فى سنة ثلاث وثلاثمائة ــ على ماكان للمسلمين من بعد نظر فى اختيار مواقع المدن ، فقد خرج المهدى ــ على حد قول ابن الأثير ــ يرتاد ساحل البحر باحثا عن موقع لمدينته فوجد جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند فبنى فيها مدينته واتخذ من ساحلها ميناء بحريا حفره فى الصخر وجعله يكفى لايواء ثلاثين سفينة ، ثم أنشأ مسجدها الجامع الذى كانت واجهته



٩ ــ رباط سوسه ــ منظر تخيلى (تونس)
عن جروين

المرابط الذى يلازم الثغر لدفع العدو أخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» . ويعنى الرباط فى العمارة الاسلامية البناء الذى كان يتخذه المسلمون مسكنا لاولئك الذين وقفوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الاسلام ، وقد يكون مقرا لمن تفرغوا للعبـادة فيدفعون بدعائهم البلاء عن البلاد .

مبعث الوحى للمهندس الذى أشرف على انشـاء مسجد الحاكم بأمر الله بالقاهرة • وترك الفاطميون تونس بعد أن عهدوا بحكمها الى قبيلة صنهاجة البربرية التى أشرنا اليها من قبل ، وخلع هؤلاء المغاربة طاعة الفاطميين وتوجهوا بولائهم الى الخلفاء العباسيين فى بغداد فانتقم منهم الفاطميون بأن أطلقوا على تونس جماعات من أعراب بنى هلال الذين كانوا ينزلون فى صعيد مصر فعاثوا فى تونس فسادا ونشروا الفوضى فى كل مكان، وقد صورت حوادثهم هـذه فى القصة الشعبية المعروفة بقصة « أبو زيد الهلالى » • واستولى الموحدون على البلاد وانتقلت عاصمتها الى مدينة تونس وقامت فيها فيما بعد الدولة الحفصية التى نشطت فى أيامها حركة التعمير نشاطا عظيما فأدخلوا على مسجدى القيروان والزيتونة كثيرا من التحسينات ، وأنشأوا كثيرا من المسـاجد والمدارس والأسواق لايزال بعضها قائمـا حتى اليوم كمسجد القصبة الذى يمتاز بصومعته الجميلة التى تحمل تاريخ انشائها وهو سنة ثلاثين وستمائة بعد الهجرة «[1]» •

فى صقلية

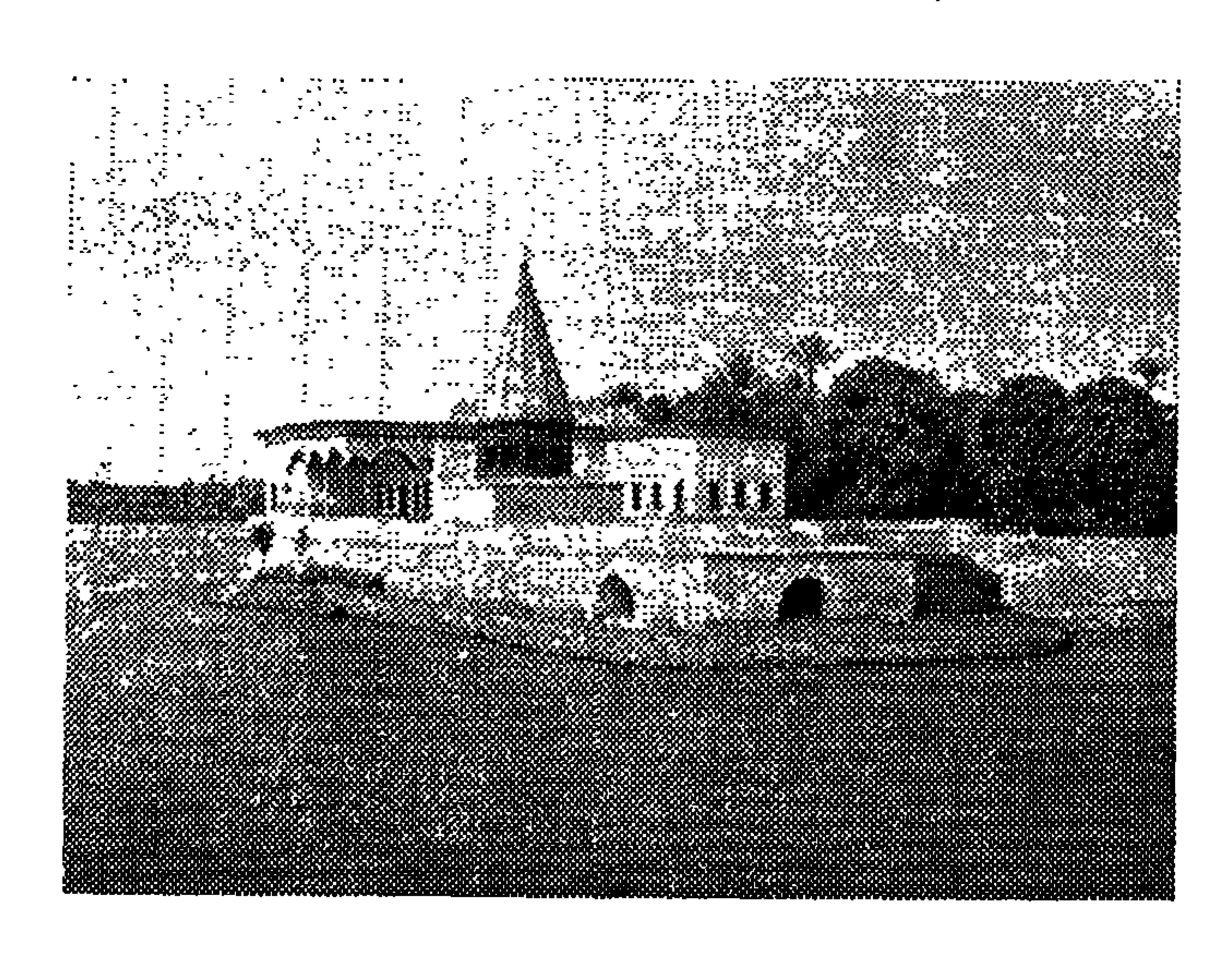
واذا عبرنا البحر الى صقلية رأينا بلادا فتحها المسلمون ومكثوا بها نحوا من قرنين ونصف (٢١٢ ــ ٤٥٣ هـ) ثم قضى النورمانديون على حكم المسلمين عام ٥٤٣ هـ ولـكنهم لم يستطيعوا القضاء على الحضارة الاسلامية التى مكّن لها الأغالبة ـ الذين عرفناهم من قبل فى تونس ـ ونشروها فى ربوع الجزيرة ، واذا كان النفوذ السياسى للعرب قد انتهى بالفعل ، فان نفوذهم فى الفن والثقـافة ظل قويا اذ استعان هؤلاء الاوروبيون بعلماء المسلمين وفنانيهم فى نشر الحضارة الاسـلامية فى الجزيرة • وصقلية هى « ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهية » كما يقول ابن جبير ، ومن أهم آثارها الباقية « قصر العزيزة » و « قصر القبة » ، وكلاهما قد بنى فى العصر النورماندى ولـكن يتجلى فيهما جمال الفن الاسلامى

(١) راجع بحثا عن « الفن الاسلامى فى تونس » للمؤلف فى عدد أكتوبر سنة ١٩٤٣ من مجلة الهلال

بصورة واضحة • ولا يفوتنا ونحن نغادر هذه الجزيرة أن نذكر أنها قد لعبت فى الحضارة الأوربية الحديثة دورا هاما ، فقد استمد منها الايطاليون — وهم أول رسل للحضارة فى أوربا — خبرتهم الصناعية فى فجر النهضة الاوربية كما تأثروا بفنها فى فنونهم الزخرفية •

فى مصر

ونعبر البحر مرة ثانية الى مصر ذلك القطر الذى شاءت العناية الالهية أن تحميه من كثير من الكوارث التى نزلت بغيره من الأقطار الاسلامية فاحتفظ بالكثير من آثار المسلمين الثابتة والمنقولة على السواء وأصبح بذلك الحارس الأمين على هذا التراث العظيم ، وقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة عشرين بعد الهجرة وأصبحت البلاد ولاية يعين عليها عمال من الخلفاء فى المدينة أو فى دمشق أو فى بغداد أو سر من رأى ، وقد وصل الينا من هذه المرحلة الأولى أثران هامان هما : مسجد عمرو أول المساجد التى أسست فى البلاد ولم يبق منه الا الأرض التى شيّد عليها وبعض أجزاء فى



١٠ — مقياس النيل بجزيرة الروضة من الخارج (مصر)
عن ادارة حفظ الآثار العربية

جداره الغربى «[1]» . ثم مقياس النيل الموجود بجزيرة الروضـــة «[2]» . واستقل أحمد بن طولون بمصر وبلغت البلاد فى عهده درجة عالية من التقدم والرقى ، الأمر الذى يشهد به القصر الذى شيده هو ووسعه ابنه خمارويه، ولئن كانت معالمه قد ضاعت الا أن وصفه الذى وصل الينا يدلنا على مقدار عظمة مصر فى العصور الوسطى «[3]» . والتأمل فى هذا الوصف يكشف لنا عن صورة من صور القصور فى هذا العصر وعن هندسة الحدائق وتنظيمها كما يجلو علينا مدى التقدم المادى الذى كانت عليه مصر منـــذ أحد عشر قرنا يوم لم تكن أوربا أو أمريكا شيئا مذكورا ولم يكن فيهما ما يستحق الذكر اذا ما استثنينا روما والقسطنطينية . والذى يؤسف له أن جميع آثار الدولة الطولونية هدمت انتقاما منها لخروجها على الخلافة العباسية ولم ينج الا المسجد الذى يعد مفخرة العمارة الاسلامية ، واذا كان المسجد الجامع بمدينة « سر من رأى » بالعراق الذى بنى هذا المسجد على نمطه قد تخرب ولم يبق منه الا أطلال فان فى جامع ابن طولون خير العوض «[4]» . ودخلت مصر فى حكم الأخشيديين ولم يصل الينا من آثارهم الا مشهـــد آل طباطبا وقد عبثت به يد البلى «[5]» . ثم دخلت تحت حكم الفاطميين ، ويعتبر عصرهم من أغنى العصور بالآثار الاسلامية اذ وصلت الينا منـــه أبنية مختلفـــة منها الجامع الأزهر وجامع الحاكم والجامع الأقمر وجامع

---

(١) راجع ص ٩ـ٢٦ من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لمؤلف هذا الكتاب (الطبعة الثانية) سنة ١٩٤٦

(٢) راجع ص١٩و٢٠ من كتاب الفن المصرى الاسلامى للمؤلف ـ مطبوعات دار المعارف سنة ١٩٥٢

(٣) ابن تغر بردى : النجـوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـاهرة جـ ٣ ص ٥٣ ـ ٥٦ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢)

(٤) انظر ص ٢٧ـ٥٢ من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك للمؤلف (الطبعة الثانية) .

(٥) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ص ٢٨٥ـ٢٨٧ واللوحة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٥٠

الصالح طلائع «[1]» ومشهد الجيوشى «[2]» وغيره من مشاهد أخرى كثيرة ثم أبواب القاهرة وأسوارها المنيعة . ووزر صلاح الدين الأيوبى للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، ثم أسقط الخلافة الفاطمية وتوجه بولائه الى الخليفة العباسى وأسست الدولة الأيوبية التى لم تترك من الآثار الا القليل بسبب انصرافها الى محاربة الصليبيين ، وكان من أثر هذه الحرب أن اتصل الغرب بالشرق وتأثر بحضارته ، وأهم آثار الأيوبيين القائمة : قلعة القاهرة التى دخل عليها الكثير من التغيير فى العصور التالية ثم مشهد الامام الشافعى ذو القبة العالية الرائعة . ثم جاء عصر المماليك وقد كان عصر انتاج فنى منعدم النظير ، وقد أحييت فيه الخلافة العباسية ــ التى سقطت فى بغداد ــ وظلت بمصر حتى استولى الأتراك عليها فانتقلت الخلافة معهم الى اسطنبول ، وأهم ماتجب الاشارة اليه من آثار المماليك مسجد الظاهر بيبرس «[3]» وقبة قلاوون وخانقاه بيبرس «[4]» ومدرسة السلطان حسن التى تعتبر من أعظم الآثار الاسلامية فى العالم . ثم دخلت مصر تحت حكم الامبراطورية العثمانية ومن أهم ما وصل الينا من هذه الفترة جامع سنان باشا ومسجد الملكة صفية وجامع محمد أبو الذهب . وقبل أن نغادر مصر ينبغى أن نمر بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة لنشهد فيه ماوصل الينا من تحف مختلفة منذ فجر الاسلام حتى عصر محمد على ، ولا نستطيع أن نلخص فى هذه الصفحات القليلة أهم ما فى المتحف انما يكفينا أن نشير اشارة عابرة الى المجموعات القيمة من المنسوجات الأثرية ومن الأخشاب

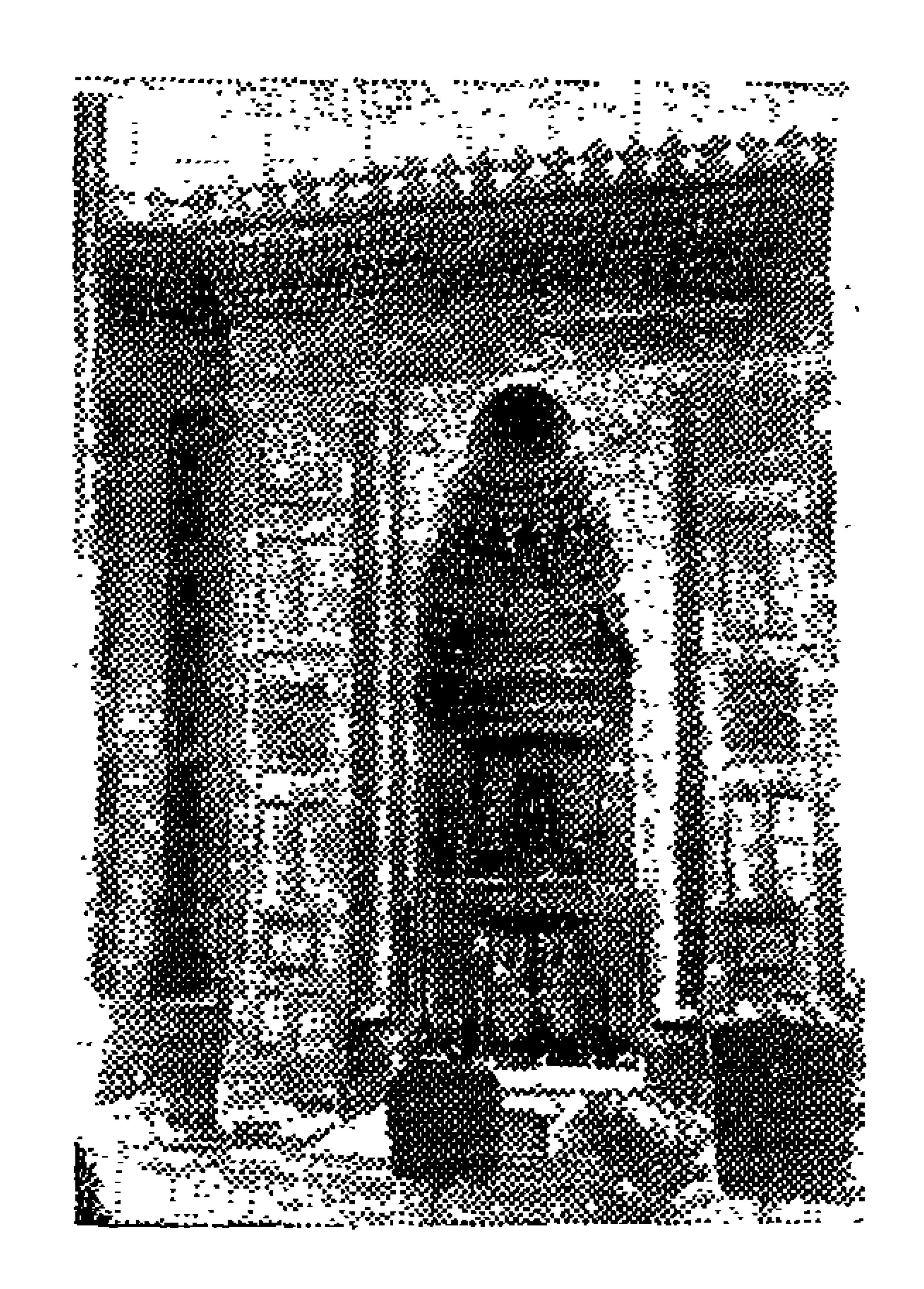
---

(١) راجع ص ٥٣ــ١٠٤ من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك للمؤلف .

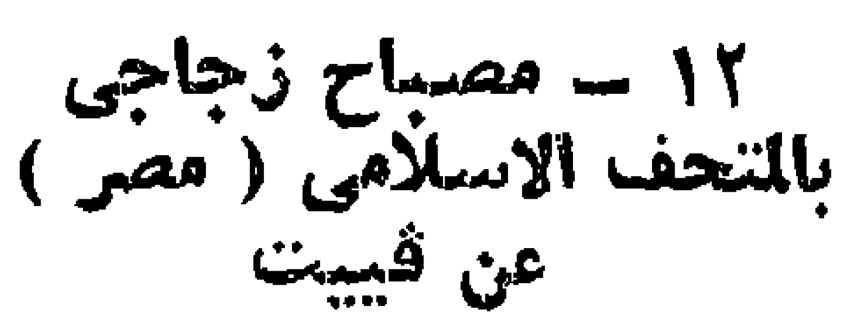
(٢) راجع بحثا لمؤلف هذا الكتاب عن مشهد الجيوشى فى مجلة الازهر عدد شهر صفر سنة ١٣٦١ هـ .

(٣) راجع بحثا عن هذا المسجد للمؤلف فى المجلة التاريخية المصرية ص ٩١ــ١٠٢ من المجلد الثالث ــ العدد الاول ــ مايو سنة ١٩٥٠ .

(٤) تعتبر قبة قلاوون من أروع المدافن الاثرية الاسلامية فى مصر . أما الخانقاه فكلمة فارسية معناها دار الصوفية أى المكان الذى يقيم فيه جماعة من المسلمين زهدوا فى لهو الحياة ورغبوا فى الانقطاع الى عبادة الله وهى أشبه ماتكون بأديرة الرهبان عند المسيحيين .



١١ ـ مدخل مدرسة السلطان حسن (مصر)
عن ادارة حفظ الآثار العربية



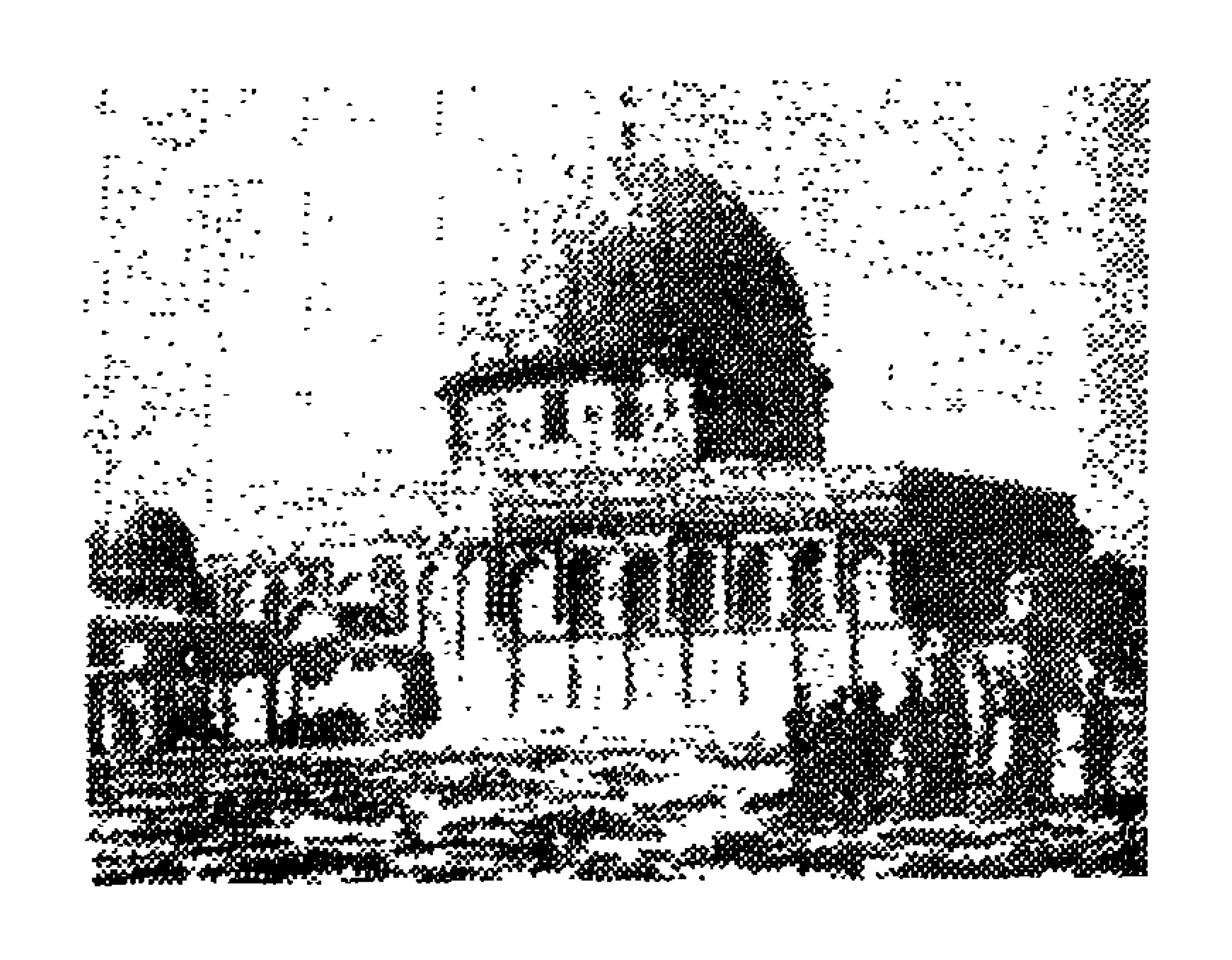
١٢ ـ مصباح زجاجى بالمتحف الاسلامى (مصر)
عن ڤييت

ومن الخزف والفخار ومن التحف النحاسية والمعدنيـــة ، التى تنتظم كل العصور الاسلامية تقريبا من مصر وغير مصر والى مجموعة شواهد القبور التى تجلو علينا تطور الخط الكوفى منذ سنة احدى وثلاثين بعد الهجرة ، وأخيرا الى المصابيح الزجاجية المملوكية المعروفة بالمشكاوات والتى تعد من أروع ما أخرجته يد الانسان »[١] .

فى الشـــام

وتقصد ببلاد الشام هنا المعنى القديم أى البلاد التى تشمل فلسطين وشرق الاردن ولبنان وسوريا ، وقد قامت فيها الخلافة الأموية بعد سقوط دولة الخلفاء الراشدين ، وتركت لنـــا الكثير من الآثار الهامة التى لاتزال قائمة حتى اليوم مثل قبة الصخرة التى بناها عبد الملك بن مروان سنة اثنتين وسبعين بعـــد الهجرة فوق الصخرة المقدسة فى بيت المقدس التى يقال ان النبى وضع قدمه عليها عندما صـــعد الى السماء ليلة الاسراء ، والمسجد

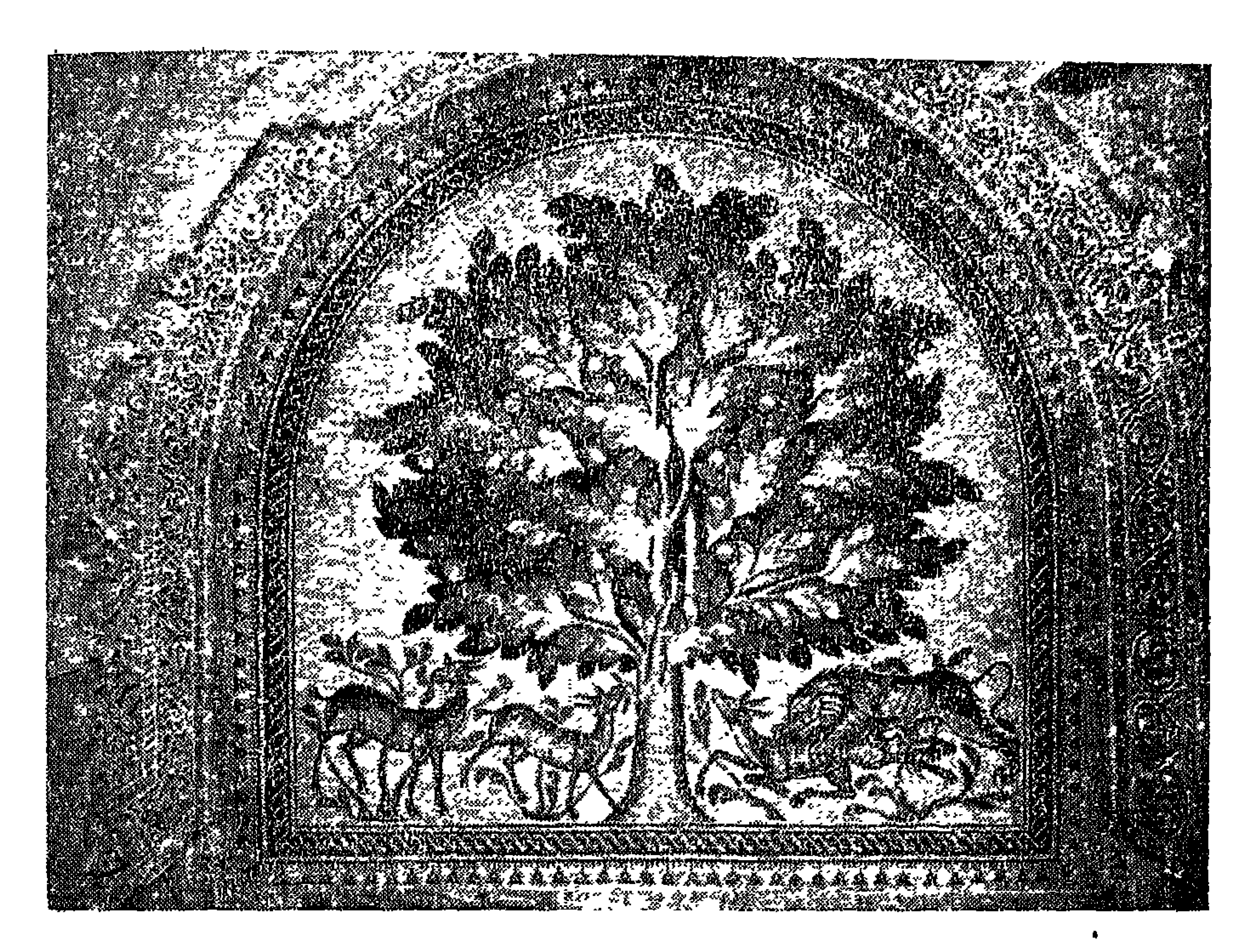
(١) راجع الفن المصرى الاسلامى للمؤلف من ص ٩١ ـ ١٢٣



١٣ ـ قبة الصخرة من الخارج (فلسطين)   عن ديز

الأموى الذى شيّده الوليد بن عبد الملك فى دمشق بين سنتى ثمانية وثمانين وستة وتسعين بعد الهجرة وأنفق عليه أموالا طائلة حتى جعله احدى عجائب الدنيا على حد قول المقدسى الذى يقول فيه « قلت يوما لعمى يا عم ، لم يحسن الوليد حين أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرفت فى عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل ، قال لاتعقل يابنى ، ان الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى فيها بيعا قد افتن فى زخارفها وانتشر ذكراها كالقمامة «كنيسة القيامة» وبيعة لد والرها، فاتخذ للمسلمين مسجدا أشغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا »[١] . وقصير عمرو الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية سنة ١٨٩٨م على بعد خمسين ميلا شرقى عمان عاصمة شرق الأردن ، وقد بنى ليستريح فيه الخليفة عند خروجه للصيد وألحق به حمام تزدان جدرانه بصور آدمية مختلفة من أهمها صورة للخليفة على عرشه وقد وقف وراءه الملوك الذين أخضعهم، وينسب هذا البناء الى الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى تم فى عهده اخضاع هؤلاء الملوك »[٢] . وقصر هشام الذى وفقت الى كشفه ادارة الآثار الفلسطينية فى شمال مدينة أريحا فى خربة المفجر وهو يرجع الى سنة عشر ومائة بعد الهجرة على أساس كتابة

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٥٩ طبعة ليدن
(٢) Creswell, op. cit. , vol. I, p. 253-272



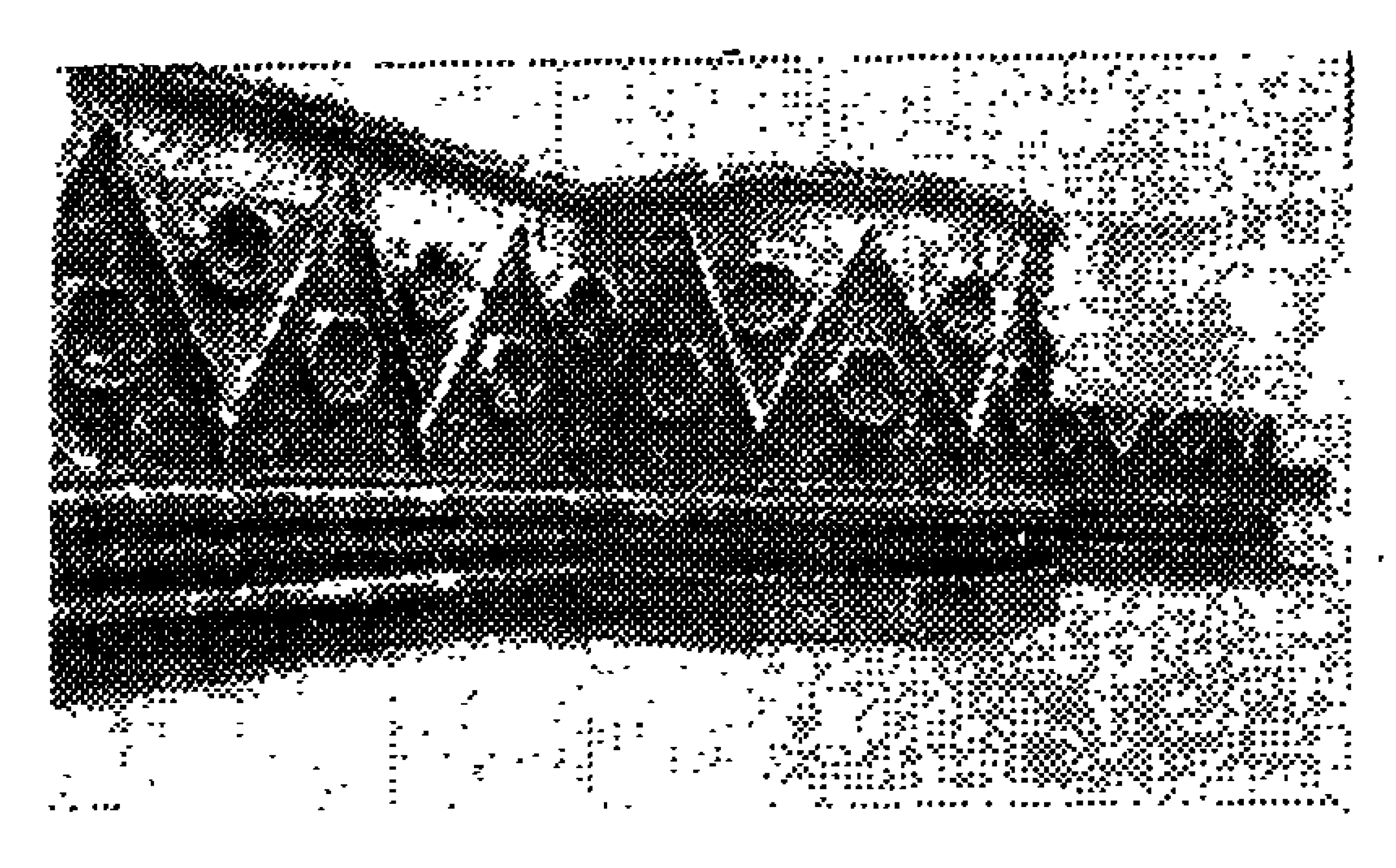
١٤ ــ قصر هشام بخربة المفجر (فلسطين) عن برمكى

وجدت فى خرائبه «١» • وقصر المشتى الذى انكشفت أطلاله فى القرن التاسع عشر الميلادى فى الجنوب الشرقى من عمان وله واجهة حجرية ذات زخارف رائعة وقد أهداها السلطان عبد الحميد الى الامبراطور غليوم سنة ١٩٠٣ م ونقلت أحجارها الى برلين حيث أعيد تركيبها فى القسم الاسلامى بمتاحف الدولة ، ويرجع هذا القصر الى أواخر عصر الدولة الأموية «٢» • وقد فقدت دمشق مكانتها بعد سقوط الخلافة الأموية ، وشاطرت مصر حظها فى معظم الأحوال، فقد غزاها الأخشيديون ثم الفاطميون ثم الأيوبيون ، وقد وصل الينا من هذا العصر بيمارستان نور الدين «٣» •

(١) Barmaki, Guide to the Umayyad Palace at Khirbat al-Mafjar, Jerusalem, 1947.

(٢) Kuhnel, Machatta, Berlin, 1933.

(٣) البيمارستان مستشفى عام يتفقد شئونه أطباء من قبل الدولة يطالعون فيه أحوال المرضى ويرتبون لهم أخذ مايحتاجون اليه ، وبين أيديهم



١٥ ــ واجهة قصر المشتى (شرق الاردن) عن كونل

ونزلت بدمشق بعد ذلك كارثة الغزو المغولى الذى قضى على معظم آثار الحضارة فيها ولكنها عادت فاستردت مكانتها من جديد فى عصر المماليك ثم عادت فتدهورت عندما استولى عليها تيمورلنك حفيد جنكيز خان زعيم المغول الذى أتى على ماكان فيها من صناعات وفنون ،وأخيرا دخلت فى حوزة العثمانيين وأهم ما وصل الينا من آثارهم التكية السليمانية التى شيدها سليمان القانونى ــ والتكية فى هذا العصر هى الخانقاه فى العصر المملوكى»(١).

ومدينة حلب التى كانت عاصمة الجزء الشمالى من بلاد الشام قامت فيها مملكة بنى حمدان ، تلك الأسرة العربية التى انتزعت حلب من يد الأخشيديين ، وأعظم شخصية فيها سيف الدولة الحمدانى الذى نال شهرة واسعة خلدها له الشاعر العربى العظيم أبو الطيب المتنبى ، وقد أهدى له أبو الفرج الاصبهانى كتابه « الأغانى » فأعطاه الف دينار ، وكتاب الأغانى كنز ثمين يجد فيه المشتغلون بالآثار الاسلامية معلومات قيمة ففيه صور واضحة لمظاهر الحياة الاجتماعية ووصف لآلات الطرب والشراب والأثاث والحلى والملابس وغيرها «(٢)» ، ويحسن أن نشير هنا الى أن للشعر العربى

ــــــــــــ

= موظفون يقومون بطبخ الادوية والاغذية وهو من حيث التصميم أشبه بقصر كبير فيه القاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن (أنظر بحثا أثريا عن هذا البيمارستان للاستاذ صلاح الدين النجد طبع فى دمشق سنة ١٩٤٦) .

(١) راجع الهامش رقم ٤ من ص ٣٧

(٢) هناك دراسات مختلفة عن كتاب الاغانى من أحدثها كتاب شفيق جبرى « دراسة الاغانى » وقد طبع فى سوريا سنة ١٩٥١ وكتاب محمد =



١٦ ــ قلعة حلب من الخارج (الشام) عن جلك وديز

ــ لاسيما مايتصل منه بالوصف ــ فضلا كبيرا على الباحثين فى الآثار الاسلامية اذ احتفظ لهم فى بعض الأحيان بوصف الآثار والتحف التى ضاعت ، وليس هناك من شك فى أن هذا الوصف قد تعوزه الدقة التى يتطلبها دارس الآثار ولكنه يساعد على تكوين صورة ذهنية أقرب ماتكون الى الحقيقة . وقد استولى الامبراطور البيزنطى نقفور فوكاس على حلب وخربها ثم جاء نور الدين محمود فضمها الى أملاكه وخلصها من الفرنجة الذين حكموها خلال الحروب الصليبية ، وقد كانت صلتها بالأوربيين وثيقة ، وأقيم فيها للبنادقة خان فى عهد الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، والخان بناء أشبه ما يكون بفنادق اليوم مع فارق واحد هو احتواؤه على أمكنة لدواب المسافرين ومخازن لحفظ مامعهم من سلع ، وقد كان يتكون من صحن مكشوف تربط فيه الدواب ، وغرف بعضها يطل على الصحن وبعضها يفتح على الطريق العام ، وفى الأولى يحفظ مامع التجار من بضائع وفى الثانية تعرض السلع المعدة للبيع أو المبادلة ، وفى أعلى غرف معدة لنزول المسافرين . ومن أهم آثار هذا الملك أيضا قلعة حلب التى تعد من أجمل وأعظم التحصينات العسكرية التى وصلت الينا من

= عبد الجواد الاصمعى (أبو الفرج الاصبهانى وكتابه الاغانى) من مطبوعات دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ .

العصور الوسطى تنطق بمدى مابلغــه المسلمون فى العمارة الحربيــة من تفوق ومهارة ، وليست هذه القلعة وذلك الخان هما كل مابقى من الآثار الاسلامية فى حلب بل فيها مجموعة من الأبنية الأثرية المختلفة لكل منها طابع العصر الذى أنشئت فيه ونكتفى بالاشارة الى مسجدها الجامع ، ومدرسة الفردوس ، وخان الوزيرى «[1]» .

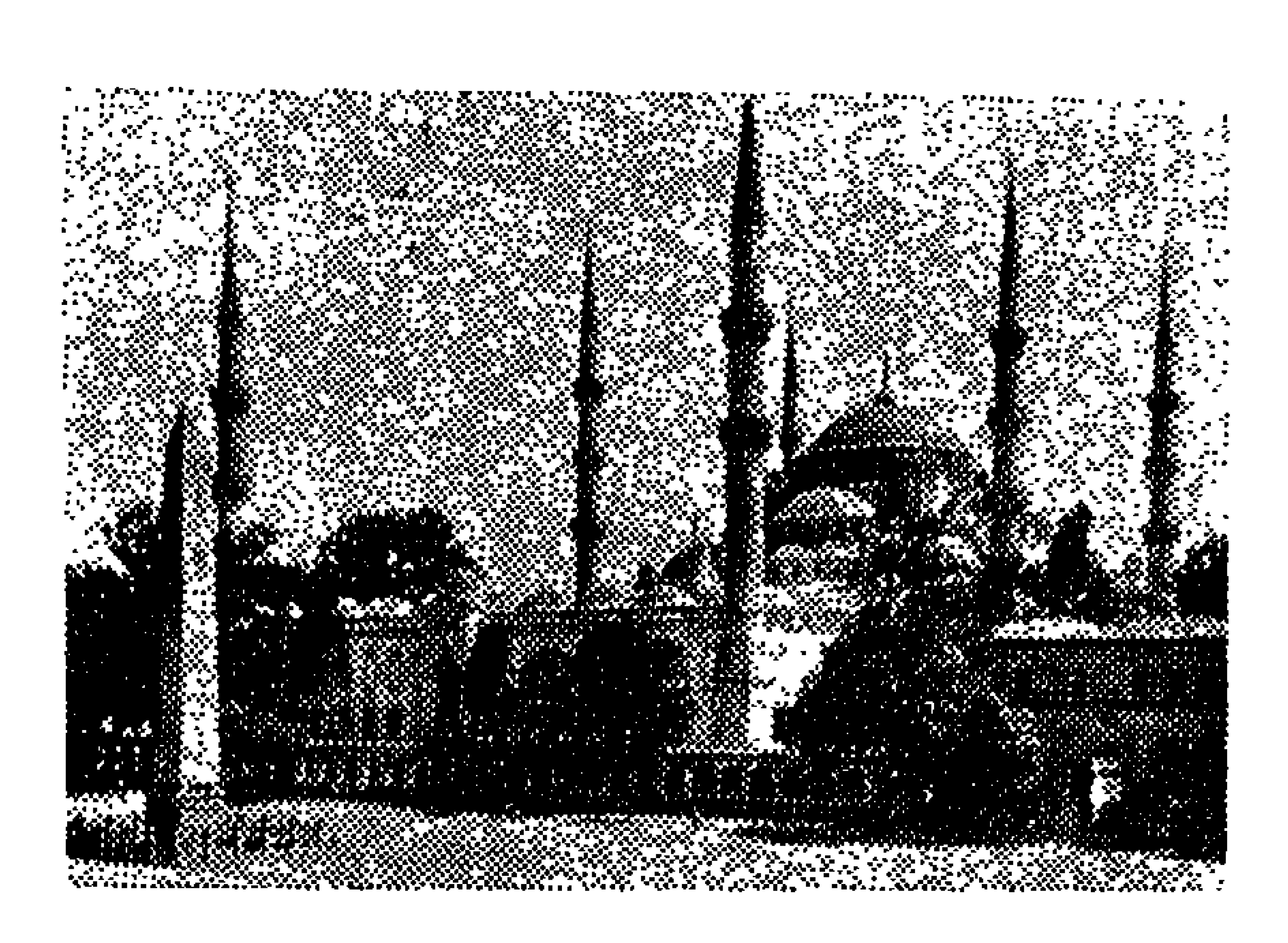
آسيا الصغرى

وننتقل الى آسيا الصغرى حيث نرى أحد فروع دولة السلاجقة التى أشرنا اليها من قبل ، ولقد ازدهرت دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى فى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة ، وكانت عاصمتها فى مدينة قونية التى عنى السلاجقه بتجميلها بالمســاجد والمدارس والقصور والأسواق والخانات وأصبحت تلك المدينة من أعظم مراكز الحضارة الاسلامية ، ولاتزال بقايا هذه الحضارة قائمة حتى الآن من أهمها « خان السلطان » فى الطريق الى قونيه ، ومدرسة « اينجهمناره» فى قونيه نفسها . وأقطع سلطان قونيه علاء الدين الثانى احدى القبائل التركيــة بعض الأراضى الواقعة فى أقصى الشمال الغربى من بلاده على الحدود التى تفصل بينها وبين أملاك البيزنطيين ، وترك لرئيس هــذه القبيلة « أرطغرل » حرية توسيع مقاطعته الصغيرة على حساب جيرانه من البيزنطيين ، واستطاع عثمان الذى ورث هذه الأراضى عن والده « أرطغرل » أن يوسع رقعتها بمهارته الحربية فاستحق أن يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العثمانية التى نسبت اليه وتسمت باسمه ، وقد سار خلفاء عثمان على نهجه ونمت مملــكتهم حتى شملت آسيا الصغرى بأكملها بل وتجاوزتها نحو الجهات الأربع ، وأصبحت من أعظم الامبراطوريات فى التاريخ ، ومن أهم أعمالها الاستيلاء على القسطنطينية وهذا فى حد ذاته حدث تاريخى عظيم له أهميته اذ اصطلح

---

(۱) وصفت هذه الآثار وغيرها من آثار سوريا فى كتاب أصدرته مديرية الآثار العامة هناك بعنوان « نزهات أثرية فى ســوريا » للدكتور سليم عادل عبد الحق ، دمشق ١٩٤٧ .

المؤرخون على اعتباره نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة ٠
وبهذا الفتح بدأت صفحة جديدة فى سجل الفن الاسلامى اذ قويت فيه الروح البيزنطية بشكل واضح ، وقد كانت كنيسة القديسة صوفيا — التى



١٧ — مسجد السلطان أحمد باسطنبول — آسيا الصغرى — عن جلك ودين

تعد أروع الآثار البيزنطية فى العالم — هى مبعث الوحى فى تصميم المساجد العثمانية بعد أن حورت لتكون المسجد الجامع فى اسطنبول فانشىء لهـا محراب ومنبر وأقيم بها من الخارج أربع مآذن اسطوانية تنتهى من أعلى بطرف مدبب كأنها أقلام الرصاص قد أعدت للاستعمال ، وقد ذاع هذا التصميم فى الأقاليم الاسلامية التى دانت للعثمانيين الذين أصبحوا خلفاء المسلمين بعد أن استولوا على مصر ٠ ولا ننسى أن نزور المتاحف المختلفة فى اسطنبول ففيها الكثير من التحف الاسلامية الهامة كالأسلحة والطنافس والمخطوطات والأوانى الخزفية والنحاسية مما جمعه العثمانيون من البلاد التى فتحوها ومما صنعوه هم فى بلادهم ٠

فى العراق

وقد عرفنا بلاد العراق من قبل عندما قامت فيها الخلافة العباسية وتأسست بغداد ثم قضى المغول عليها وعلى الخلافة ، وسنجول الآن جولة

سريعة بين مابقى من آثار بغداد ثم نزور « سر من رأى » ثم «الموصل» .
ونرى فى بغداد القصر العباسى المستخدم اليوم متحفا للآثار الاسلامية«[1]»،
وتربة « زمرد خاتون » المعروفة خطأ باسم تربة السيدة زبيدة ، والمدرسة
المستنصرية «[2]» .

وتقع مدينة « سر من رأى » أو سامراء الى شمالى بغداد وقد أنشأها
المعتصم عندما ضاقت بغـداد بالمماليك الأتراك الذين أكثر من شرائهم
وتأذى بهم السكان اذ كانوا يركضون بدوابهم فى شوارع بغداد يصدمون
الناس يمينا وشمالا فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضا ويضربون بعضا .
وخرج المعتصم يوما للصيد فمر فى طريقه على صحراء لا عمارة فيها ولا
أنيس الا دير للنصارى فوقف بالدير وسأل من فيه من الرهبان عن اسم
هذا المكان فأجابه بعضهم « نجد فى كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يسمى
سر من رأى وأنه كان مدينة سام بن نوح وأنه سيعمر بعض الدهور على
يد ملك جليل مظفر منصور له أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفـلاة
ينزلها وينزلها ولده » فقال المعتصم « أنا والله أبنيها وأنزلها وينزلها ولدى »،
واشترى الأرض من أصحاب الدير وأحضر المهندسين فاختاروا مواقع
القصور وصيَّر لكل واحد من أصحابه بناء قصر ، وخطط الشوارع الواسعة
الممتدة الى مسافات طويلة ، واستحضر من كل بلد من يعالج العمارة والزراعة
وهندسة الماء واستنباطه ، وأقطعهم الأراضى وحثهم على البناء فنتجت عن
ذلك حركة واسعة النطاق فى الانشاء ، واستعمل القوم ما بين أيديهم من
المواد الخام : فمن الطين صنعوا اللبن والآجر ، ومن الأتربة الكلسية صهروا
الجص الذى طلوا به الجدران التى تفننوا فى زخرفتها . وقد أفرد المعتصم
للاتراك قطائع منعزلة عن الناس واشترى لهم الجوارى فأزوجهم منهن

---

(١) أصدرت مديرية الآثار القديمة فى العراق كتابا عن هذا الاثر عنوانه
« القصر العباسى فى قلعة بغداد » سنة ١٩٣٥

(٢) راجع « دليـل تاريخى على مواطن الآثار فى العراق » ، وقـد كتب
الجزء الخاص ببغداد الدكتور مصطفى جواد . وطبع فى بغداد سنة ١٩٥٢

ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا الى أحد من المولدين الى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، وأجرى الأرزاق لهؤلاء الجوارى التركيات ، وخط المسجد الجامع وأقيمت حوله الأسواق وجعل كل تجارة منفردة عن سواها ، وأقدم من كل بلد من يعالج مهنة من المهن : فمن مصر حمل من يعمل القراطيس ، ومن البصرة حمل من يعمل الزجاج والخزف والحصر ، ومن الكوفة حمل من يعمل الخزف والأدهان ، كما جلب أيضا أصناف الأشجار المثمرة من جميع البلدان وغرسها فى البساتين • وأنزل هؤلاء الصناع جميعا بعيالهم وأقطعهم الأراضى ، وجعل لأهل كل مهنة سوقا خاصا بهـا فى المدينة • وقد سكن سامراء خلفاء ثمانية هم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهدى والمعتمد ، وقـد رصعوا جوانبها بالقصور والمساجد ثم هجرت هـذه المدينة فى سنة تسع وسبعين ومائتين هجرية بعد أن عمرت نحو نصف قرن (من سنة ٢٢١ هـ الى٢٧٩ هـ) وبقيت خرائبها رهينة الاهمال حتى أشرق فجر القرن الحالى فنفضت معاول علماء الآثار الرمال عنقصورها ومساجدها البالية وانبعثت



١٨ ـ صورة راقصتين ، مرسومة على الجص ، من حفائر « سر من رأى » (العراق) ـ عن كونل

تلك القصور تحدثنا بتخطيطها وزخارفها عن عظمة العباسيين «[1]» . وقد استطاع هؤلاء العلماء أن يتعرفوا على مابقى من تلك الأبنية مثل دار الخليفة ، والمسجد الجامع ذى المنارة الملوية الذى على هيئته بنى مسجد ابن طولون فى مصر ، وجامع أبى دلف ومئذنته الملوية أيضا والشارع الأعظم ، والمنقور أو قصر بلكوارا ، وقصر العاشق «[2]» . وقبل أن نغادر العراق لايجب أن تفوتنا زيارة قصر الأخيضر الواقع الى الجنوب من بغداد على مسافة مائة وعشرين كيلو مترا ، وقد استمد اسمه ـ على أرجح الآراء ـ من الموقع القائم فيه ، اذ يمتد بالقرب منه واد رملى يعرف بالوادى الأبيض تتجمع فيه المياه وتساعد على نمو الحشائش فتكسب الأرض خضرة ، ومن هنا جاء اسم هذا القصر . وقد كان يظن أنه سابق فى وجوده على الاسلام ولكن الحفائر الأثرية التى أجريت فيه كشفت عن بقايا مسجد كان مشيدا بداخله فأصبح لامجال للشك فى أنه اسلامى ، وهو من عصر هارون الرشيد «[3]» . ودخلت العراق بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول فى دور الضعف والانحلال الا فترات وجيزة كانت تستيقظ فيها ، وحكمها الفرس ثم غزاها الأتراك العثمانيون .

فى ايران

واذا تركنا العراق الى ايران وجدنا هناك أمة سطرت فى سجل الحضارة الاسلامية أروع الصفحات ، فهى بلاد عريقة فى المدنية قضى الفتح العربى على دينها القديم وأضعف لغتها القومية وعندما استعادت هذه اللغة قوتها لم تستطع أن تتلخص من الحروف العربية فظلت تكتب بها حتى اليوم . وقد سادت الحضارة الايرانية العالم الاسلامى فى العصر العباسى بل لقد اتخذت مدينة مرو ـ احدى المدن العظيمة فى ايران ـ عاصمة للدولة العباسية

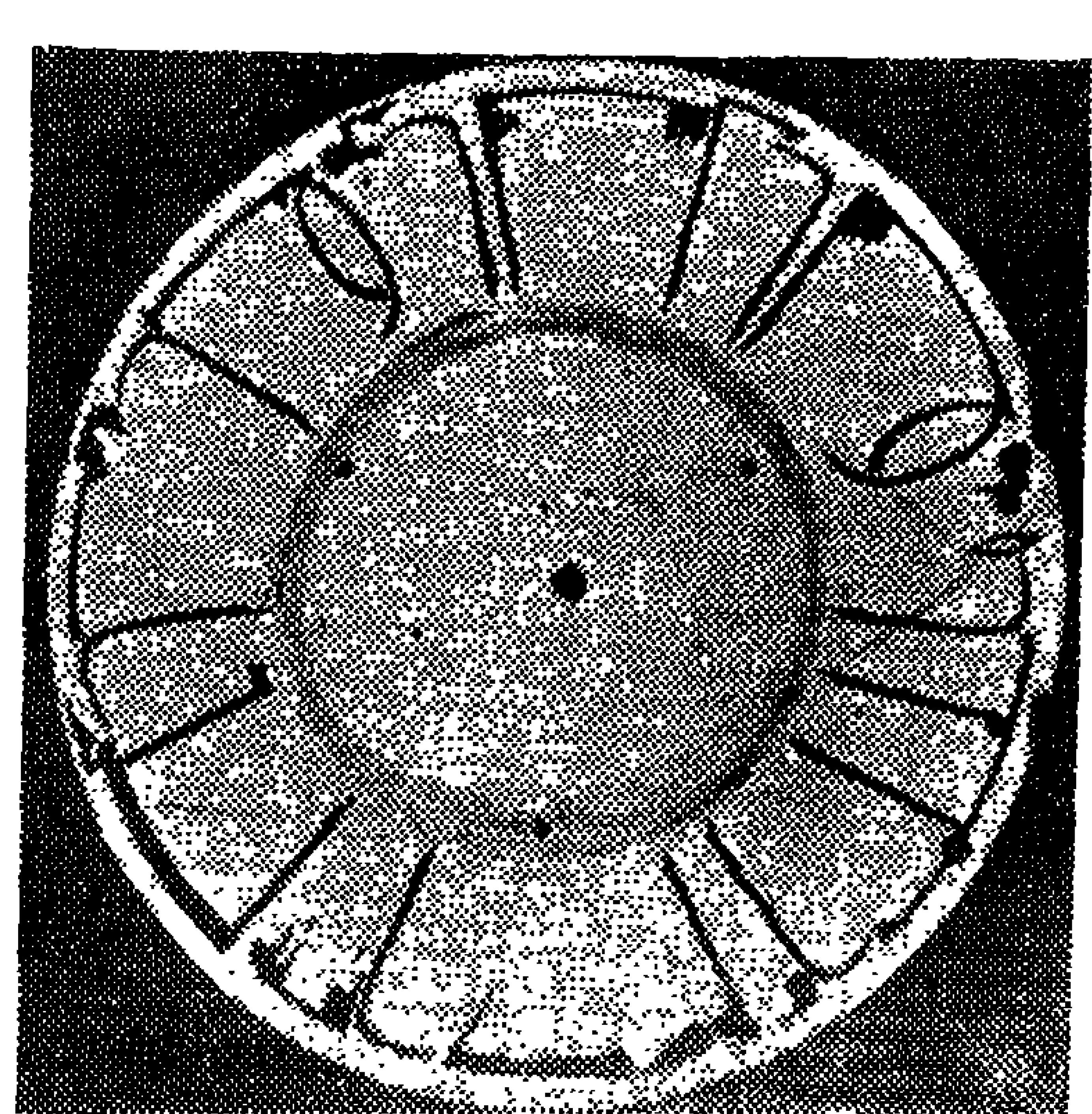
(١) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. II p. 227-245, 254-270, 277-288, 361-369. (Oxford, 1940)

(٢) راجع « دليل تاريخى على مواطن الآثار فى العراق » بغداد سنة ١٩٥٢ وقد كتب الجزء الخاص بسر من رأى السيد بشير فارس . وراجع أيضا كتاب مديرية الآثار العراقية عن سامراء الصادر سنة ١٩٤٠ .

(٣) Creswell, op. cit, vol. II, p. 50-100

فترة من الزمن على عهد الخليفة المأمون. وقد مرت ايران فى تاريخها الاسلامى بأدوار أربعة ينتهى الأول منها بالفتح السلجوقى ومن أهم آثاره المسجد الجامع بمدينة نايين «١» ، وقد قامت فى خلال هذا الدور عدة دول صغيرة بعضها فى الجانب الشرقى من ايران مثل الطاهرية والصفارية والسامانية ، وبعضها فى الجانب الغربى مثل البويهية ، وقد تركت الدولة السامانية أقدم المشاهد الاسلامية المعروف بقبة الصليبية التى أقيمت فى ضواحى بخارى وهى أول مثال للقبة الكبيرة التى تقوم فى زواياها الأربع قباب صغيرة ، وقد شاع استعمال هذا الطراز فى العمائر الهندية الاسلامية ، ويتجلى فى هذا المشهد أيضا طريقة خلق الزخارف من الأوضاع المختلفة لقوالب الأجر عندما تستخدم فى البناء «٢» . ومن آثار هذه الدولة أيضا آنية من الخزف تتحلى ببيت من الشعر نصه :

العلم أوله مر مذاقته * لكن آخره أحلى من العسل «٣»



١٩ ــ آنية من الخزف الايرانى تتحلى ببيت من الشعر (ايران)

---

(١) راجع بحثا عن هذا المسجد بقلم

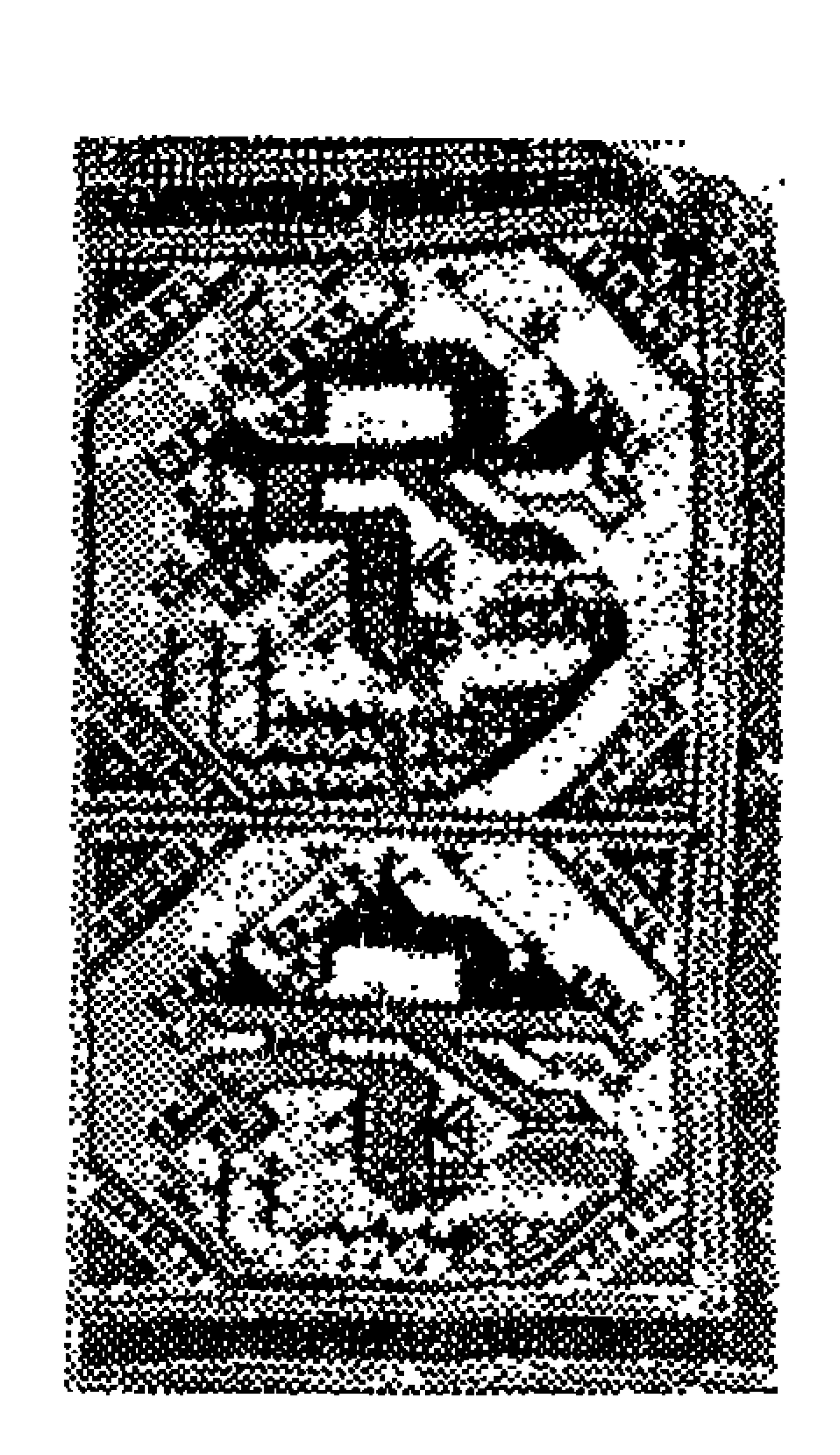
Violet et Flury, Un momment des premières siècles de l'hegire en Perse, Syria, 2, 1921 p. 283-28ο.

(٢) Creswell, op. cit, vol. II, p. 283 - 285.

(٣) توجد كلمة السلامة بعد آخر هذا البيت من الشعر .

وهذا فى الحقيقة مثال رائع يتجلى فيه الذوق المصفى فى صناعة الخزف، ويتجلى فيه كذلك مايمكن أن يصل اليه الفنان من توفيق عظيم عندما يقتصر فى زخرفة الأوانى على الكتابة العربية وحدها . ومعروض بهـذا المتحف أيضا قطعـة من الحرير عليها اسم القـائد « نكتجين » أحد قواد هـذه الدولة «(١)» .

ويشمل الدور الثانى العصر السلجوقى وقد وصلتنا منه آثار عدة أهمها المسجد الجامع فى أصفهان ، والى السلاجقة ينسب فضل ادخال صناعة الطنافس فى ايران ، ونستطيع أن نستخلص من صور المخطوطات الفارسية التى نشاهد فى بعضها رسوما شتى للطنافس ثم من الطنافس التى وصلت الينا من العصور اللاحقة أن الفرس سرعان ماحذقوا هذه الصناعة وأقبلوا



٢٠ ــ طنفسة التنين والعنقاء (آسيا الصغرى) عن كونل



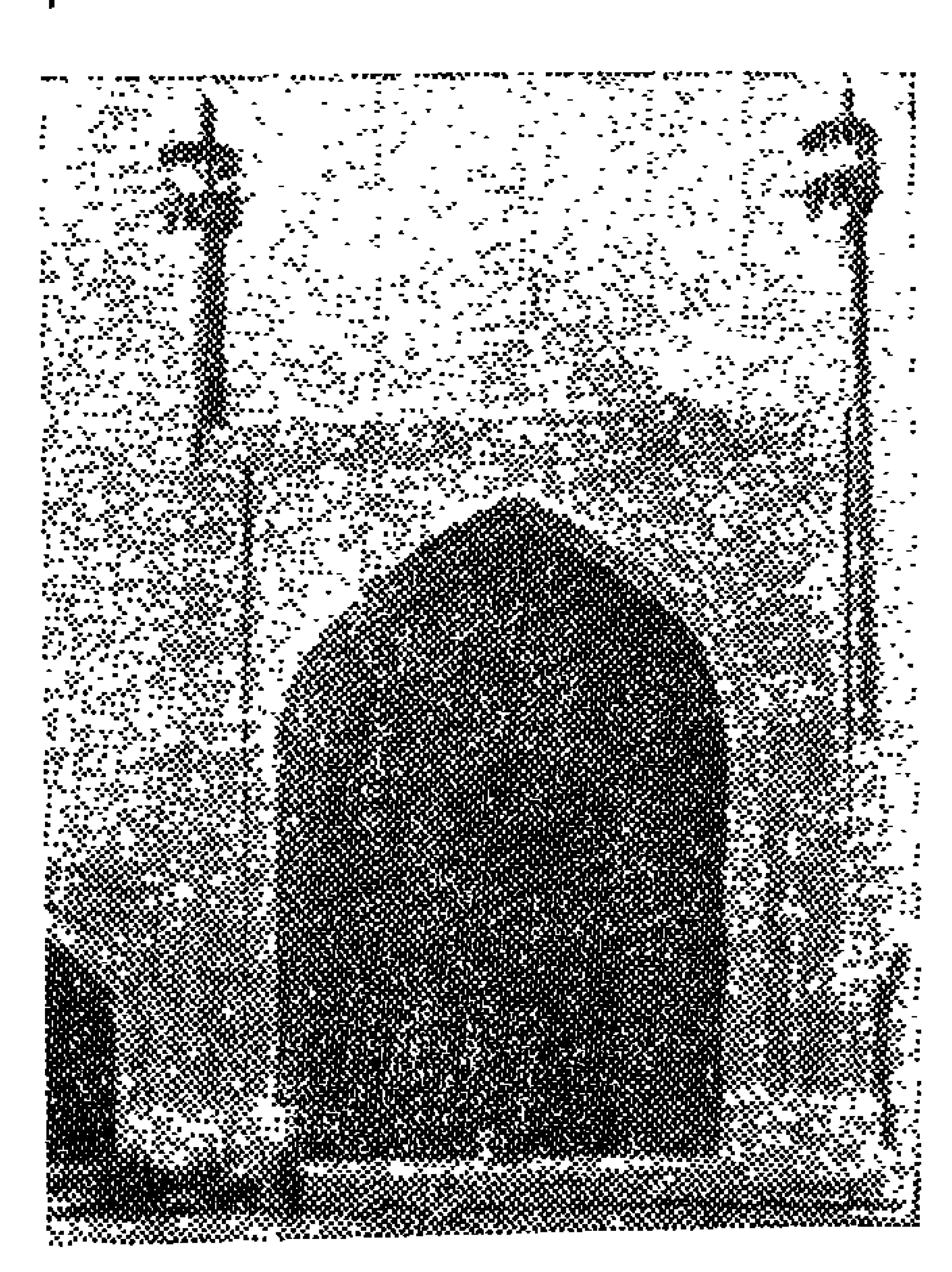
٢١ ــ قبر تيمورلنك فى سمرقند (ايران) عن جلك وديز

---

(١) ابن الاثير : تاريخ الكامل جـ ٨ ص ٢١٠ ، المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ .

عليها وأنشأوا لها المناسج فى أرجاء بلادهم فتقدمت وخطت فى سبيل الرقى خطوات واسعة حتى سمت عن دائرة الصنعة الى مستوى الفن الجميل، كما ينسب الى السلاجقة أيضا فضل اذاعة الخط النسخ واستعماله على العمائر الاسلامية .

ومن الدور الثالث أو عصر المغول وصلت الينا بعض الآثار التى أهمها قبر تيمورلنك فى مدينة سمرقند ومسجد جوهر شاد فى مدينة مشهد والمسجد الجامع فى مدينة يزد . وقد التقينا بالمغول من قبل عندما أسقطوا الخلافة العباسية بزعامة هولاكو ، وقد أسس هذا المغولى فى ايران الدولة الايلخانية التى اعتنقت الاسلام وأعجبت بالحضارة الايرانية الاسلامية فأقبلت عليها وانغمست فيها ، ولم يتنكر المغول لماضيهم بل ظلت صلتهم ببلاد الصين قوية ، وقد ترتب على ذلك أن أصبحت حضارتهم مزيجا من الحضارة الايرانية والحضارة الصينية التى أتت معهم من موطنهم الأصلى. ومات هولاكو وانقسمت ايران الى دويلات صغيرة ، ثم ولد مغولى جديد



٢٢ ــ مسجد الشاه فى أصفهان (ايران) ــ عن بوب

سنة ست وثلاثين وسبعمائة بعد الهجرة هو تيمور لنك الذى سطر فى تاريخ المغول صفحات مخضبة بالدماء ، فما كاد يبلغ سن الشباب حتى استأثر بالسلطة فى بلاده ــ ماوراء النهر ــ ثم زحف الى ايران وقضى فيها على الدويلات المختلفة وأخضعها لحكمه ، ثم تحول الى الهند ، ثم التحم مع الأتراك العثمانيين ، وقد خرب فى فتوحاته كثيرا من المدن الاسلامية الهامة . ونجح ابنه « شاه رخ » فى الاستيلاء على ايران وبلاد ماوراء النهر بعد وفاة أبيه تيمور ، واتخذ هراة عاصمة له فازدهرت فيها الفنون حتى قيام الدولة الصفوية .

والدور الأخير هو العصر الصفوى الذى يستمد اسمه من الشيخ صفى الدين أحد الأولياء فى مدينة أردبيل ، أما مؤسس دولة الصفويين فهو الشاه اسماعيل حفيد هذا الولى الذى اتخذ مدينة تبريز عاصمة له وجعل المذهب الشيعى مذهبا رسميا لبلاده ، ومن أشهر ملوك هذه الدولة الشاه عباس الأكبر الذى اتصل بالدول الأوربية ليحفظ التوازن بينه وبين الأتراك العثمانيين الذين كانوا فى ذلك الوقت ألد أعداء ايران لاختلافهم فى المذهب الدينى فالأتراك على المذهب السنى بينما الفرس على المذهب الشيعى ، وقد نقل الشاه عباس عاصمته من تبريز الى أصفهان ، ومن أجمل الآثار الاسلامية بها مسجد الشاه . هذا وللايرانيين مهارة فائقة فى التصوير وفى كثير من الصناعات المختلفة ، ومتاحف آسيا وأوربا وأمريكا ومصر غنية بمنتجاتها الفنية «[1]» .

فى الهند

وقصة الحضارة الاسلامية فى الهند تقع فى فصول رئيسية ثلاثة قامت بتمثيلها فرق ثلاث : فرقة عربية ، وفرقة تركية أفرادها من الغزنويين ، وفرقة مغولية . وقد اختصت كل فرقة منها بتمثيل فصل واحد من فصول هذه القصة : أما الفرقة العربية فقد ظهرت على مسرح الهند فى سنة احدى

(١) Pope, A Survey of Persian Art, Oxford 1938 ;
وزكى محمد حسن : الفنون الايرانية ــ الطبعة الثانية (مطبوعات دار الاثار العربية ١٩٤٦) .

وتسعين هجرية وكان على رأسها محمد بن القاسم الذى نزل بجيشه أمام مدينـــة الديبل (كاراتشى الحالية) وسير جيوشه بحذاء نهر السند حتى أشرفت على وادى البنجاب • وفى الحق لقد خلّد محمد بن القاسم لنفسه فخر السبق فى فتح هذا الميدان الجديد أمام المسلمين ، ولم يلبث طويلا على خشبة المسرح، وكأنما أراد بهذا الظهور ــ الذى لم يستمر طويلا ــ أن يلفت نظر الهنود الى تلك الأمة الفتية التى قامت الى غربى بلادهم ، والى ذلك الدين الجديد الذى أشرق فى الجزيرة العربية ثم انتشر نوره فى أرجاء العـــالم •

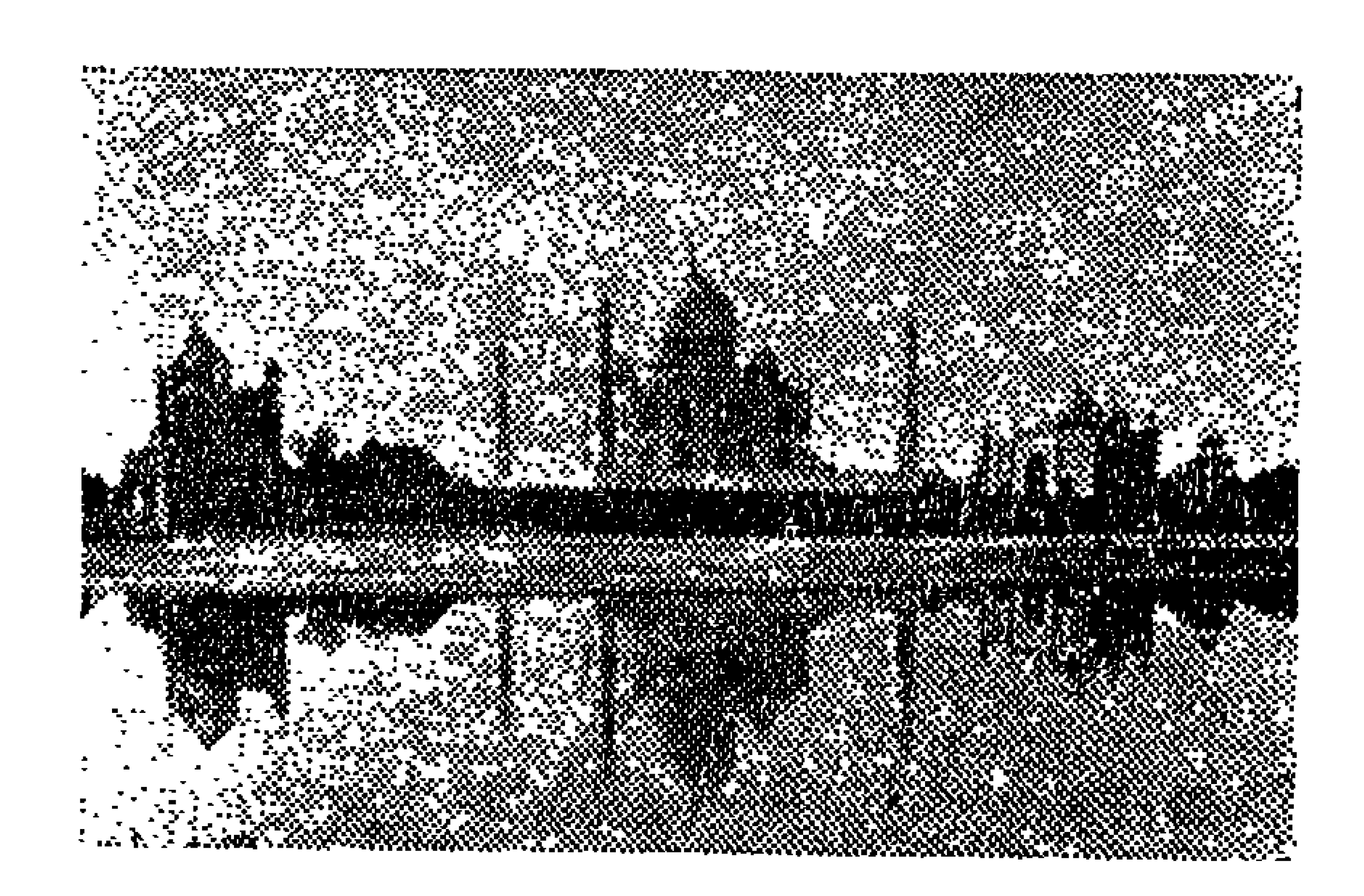
وفى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة هجرية نجحت الفرقة الغزنوية «[1]» فى الوصول الى المسرح ، وكانت الفـــكرة الاسلامية قد وجدت سبيلها الى قلوب بعض الهنود ، فلما ظهرت هذه الفرقة التركية استجاب لها البعض على استحياء ولكن قوة الممثلين قد رجّت المسرح رجًّا وهزت المشاعر هزا وفتحت القلوب لهذا الدين الجديد فاستجابت له طواعية أو كرها • واستمر محمود الغزنوى الممثل الأول فى هذه الفرقة يكافح ويجاهد حتى دان له شمال الهند وشمالها الغربى ثم مات، ولكن فرقته استمرت فى عملها ودخلت فيها عناصر جديدة وتسلم قيـــادتها قطب الدين أيبك الذى بنى مسجد قوة الاسلام تخليدا لذكرى استيلائه على دلهى سنة تسعة وثمانين وخمسمائة هجرية وهو من أعظم المساجد فى العالم • وقد نسج فى تشييده على المنوال الذى نسج عليـــه حكام المسلمين من قبل فجمع له العمد من المعابد الهندية القديمة وزينه بآيات من القرآن الـــكريم ، ثم المنار الذى أنشأه ولا يزال حتى اليوم يحمل اسمه فهو معروف باسم «منار قطب» «[2]» ويعد أفخم بناء من نوعه •

---

(١) ينسب الغزنويون الى مدينة غزنة وهم من الاتراك وقـــد كانت لهم مملكة فى أفغانستان ، وأشهر ملوكهم سبكتكين الذى عنى بنشر الاســـلام فى الهند وجاء بعده ابنه محمود الذى أتم غزو تلك البلاد .

(٢) Brown, Indian Architecture (The Islamic Period) Bombay, 1942, p. 6-12.

أما الفصل الثالث والأخير من هــذه القصة فقد مثلته الفرقة المغولية اذ أغار تيمورلنك ــ الذى عرفناه من قبل ــ على البلاد وبدأ فى حياتها عصرا جديدا • وأعظم شخصية فى هذا العصر هو الملك (أكبر) الذى دام عهده نحوا من خمسين سنة كانت من أزهى عصور الاســلام فى الهند ، وقد وصلت الينا آثار كثيرة نذكر منهــا على سبيل المثال المسجــد الجامع فى دلهى وقبر الملك أكبر بالقــرب من أجرا وضريح تاج محــل فى أجرا نفسها «[1]» • وهذا الأثر الأخير يعد أجمل العمائر الاسلامية على الاطلاق فى القرن الحادى عشر الهجرى ولذلك سنقف عنده قليلا نتأمل فى روعة قصته وبهاء طلعته وجمال تــكوينه ودقة تصميمه • أمر بتشييده الملك (شاه جهان) ابن الملك أكبر سالف الذكر لكى يضم رفات زوجته ورفاته بعد مماته • ولانشائه قصة لحمتها الاخلاص وسداها الوفاء اذ تزوج الشاه جهان بالأميرة (ممتــاز محل) التى حرف اسمها فأصبح تاج محل وقــد رزقت منه بأربعة عشر ولدا ثم توفيت على أثر الوضع فحزن عليها حزنا عميقا وواصل البكاء عليها ليلا ونهارا ، وعقد العزم على أن يخلّد هذا الحب ، فاختار فى مدينة أجرا بقعة شيّد عليها هذا البناء الفخم ونقل رفات زوجته اليه • وقد استغرق البناء اثنتين وعشرين سنة ، وكان يعمل فيــه



٢٣ ــ ضريح تاج محل فى أجرا (الهند) عن جلك وديز

---

(١) Brown, op. cit. p. 95-119

عشرون الف عامل ، وشيِّد الضريح بالمرمر الأبيض ، وهو يتكون من قبة عالية تحتها قبران واحد للزوجة وواحد للزوج ، وأحيطا بحاجز من المرمر الأبيض نقشت فيه الزخارف نقشا رائعا ، وللضريح مآذن ضاربة فى الفضاء ونوافذ قد سدت بمصبعات ، وله مداخل أربعة كل مدخل منها يغطيه قبو جميل ، والعقود والنقوش مرصعة بالأحجار الكريمة ، وله ساحتان مكشوفتان فى كل منهما حديقة غناء ويتصل به مسجد لطيف الشكل ، ويتجلى فى البناء سمو الذوق واتزان الأبعاد والتناسب بين الأجزاء ، والتناسق فى الزخارف والألوان ، فهو بحق أجمل عمائر الهند ومن أروع الآثار الاسلامية فى الشرق وفى الغرب .

وينبغى أن نذكر ونحن نغادر الهند الى الصين أنها قد حذقت فى العصر الاسلامى صناعات عدة منها صناعة المعادن لاسيما الحلى المرصعة بالأحجار الكريمة وصناعة التحف العاجية وصناعة المنسوجات لاسيما القطنية ذات الزخارف المطبوعة ، وفى المكتبة الأهلية بباريس وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة أمثلة جميلة تشهد بهذه البراعة والمقدرة ، وصناعة الطنافس التى تقدمت على أيدى نساج من ايران شجعهم أباطرة المغول على الاستقرار فى الهند قد تعلمها الهنود وأتقنوها وأنتجوا بدورهم طنافس يتجلى فيها جمال الفن الهندى الاسلامى . ولا نعجب من سرعة نضوج هذه الصناعات فى الهند فقد كان لها تقاليدها القديمة السابقة على الاسلام وقد دخلت اليها الحضارة الاسلامية بعد أن نضجت وازدهرت فساعد ذلك على سرعة النهوض الفنى فى الهند .

وفى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ حدث فى بلاد الهند حادث لاينبغى أن نجهله ذلك أنها انقسمت الى دولتين : دولة الهند ودولة الباكستان ، وهذه الأخيرة يقع جزؤها الغربى فى اقليم السند وما يحيط به ، وهى البقاع التى أشرق فيها الاسلام أول ما أشرق فى الهند ومنها انتشر فى باقى البقاع .

---

(١) راجع بحثا للمؤلف عن طنافس الهند نشر فى مجلة الهلال الجزء الخامس – أكتوبر سنة ١٩٤٤

فى الصين

ولم يفتح العرب بلاد الصين كما فتحوا بلاد الفرس أو الهند أو غيرهما من الأقطار الاسلامية ولكنهم اتصلوا بالصينيين عن طريق التجارة قبل الاسلام كما اتصلوا بهم أيضا فى مناسبات شتى بعد الاسلام : اتصلوا بهم عندما أوفد امبراطور الصين أحد سفرائه الى الخليفة الثالث عثمان بن عفان لكى يدافع عن قضية فيروز بن يزدجرد آخر ملوك الفرس من الساسان الذى قضى العرب على ملكه وأرغموه على التخلى عن عرشه والخروج من وطنه، وقد رد الخليفة الرسول الصينى مع أحد قواده من العرب ردا كريما ، وأكرم الامبراطور الصينى وفادة الرسول العربى . واتصلوا بهم أيضا فى عصر الخلافة الأموية فى أيام الوليد بن عبد الملك عندما قام القائد العربى قتيبة بن مسلم والى خراسان بحملات حربية امتدت حتى الحدود الشرقية لبلاد الصين ، واتصلوا بهم كذلك فى عهد الخلافة العباسية عندما عاون الخليفة المنصور أحد أباطرة الصين على استرداد عرشه الذى أقصى عنه على أثر ثورة قامت ضده «[1]» .

ولقد كان المسلمون فى بلاد الصين أقلية ولذلك اندمجوا فى السكان اندماجا تاما ، واصطبغوا بالصبغة الصينية فى كل شىء تقريبا : فى زيهم وفى حياتهم وفى أبنيتهم ، فشيدوا مساجدهم على طراز المعابد الصينية ولم تكن فى الواقع تمتاز عن هذه المعابد فى مظهرها الخارجى ، أما من الداخل فكل ماهنالك من الفرق هو وجود الأصنام فى المعابد الصينية ووجود المحراب والمنبر فى المساجد ، وقد شذ عن هذه القاعدة مسجد مدينة كانتون (خانفو) اذ بنيت له مئذنة ساذجة اسطوانية الشكل عاطلة من كل زخرف ، ويعد هذا المسجد من أقدم المساجد فى بلاد الصين ولكن هناك مسجدا آخرا هو مسجد (جانغ ــ آن) ينافسه هذا القدم ، ومن المؤرخين من يضعه قبل

---

(١) راجع عن علاقة العرب بالصينيين قبل الاسلام وبعده كتاب الدكتور سليمان حزين Arabia and The Far East ص ٢٦٥ ــ ٢٧٠ والمراجع التى يشير اليها (من مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية ــ القاهرة ١٩٤٢) .

مسجد كانتون ، ومنهم من يضعه بعد هذا المسجد «(١)» .

ولما أغارت قبائل المغول ـ أو قبائل التتار كما كان يسميهم الصينيون ـ على بلاد الصين ، ثم أغارت على العالم الاسلامى كما عرفنا من قبل زادت الصلات بين المسلمين والصينيين ، وهاجر الى بلاد الصين بعض الفرس والعرب والأتراك وامتزجوا بالسكان ، ويشير ابن بطوطه فى رحلته الى أن « فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها ، وهم معظمون محترمون «(٢)» »

ومن أشهر هذه المساجد المسجد الجامع بمدينة « سيان فو » وقد كانت هذه المدينة معروفة من قبل باسم (شانج نجان) وكانت عاصمة لبلاد الصين كلها أو معظمها فى عصور مختلفة «(٣)» .

وقد كانت للصينيين شهرة واسعة عند المسلمين فى كثير من الصناعات نذكر منها على سبيل المثال صناعة الخزف ، فقد كشف الأثريون عن قطع كثيرة من الخزف الصينى فى المدن الاسلامية القديمة ، ولم تكن هذه الشهرة على غير أساس ، فلقد عرف عن الصينيين أنهم أعرق أمم الأرض فى هذه الصناعة ويكفى دليلا على ذلك أنها خلعت اسمها على المصنوعات الخزفية فأصبحت تعرف باسم « الصينى » فى اللغة العربية و China فى اللغات الاوربية . ولقد ذكر الرحالة العربى سليمان ـ الذى زار بلاد الصين سنة ٢٣٨ هـ ـ أنهم يجيدون عمل « الغضار الجيد يصنعون منه أقداحا فى رقة القوارير الزجاجية مع أنها من الغضار «(٤)» . وقد اعترف المسلمون للصينيين بمهارتهم فى صناعة الخزف ، فقال ابن الفقيه فى كتاب البلدان

---

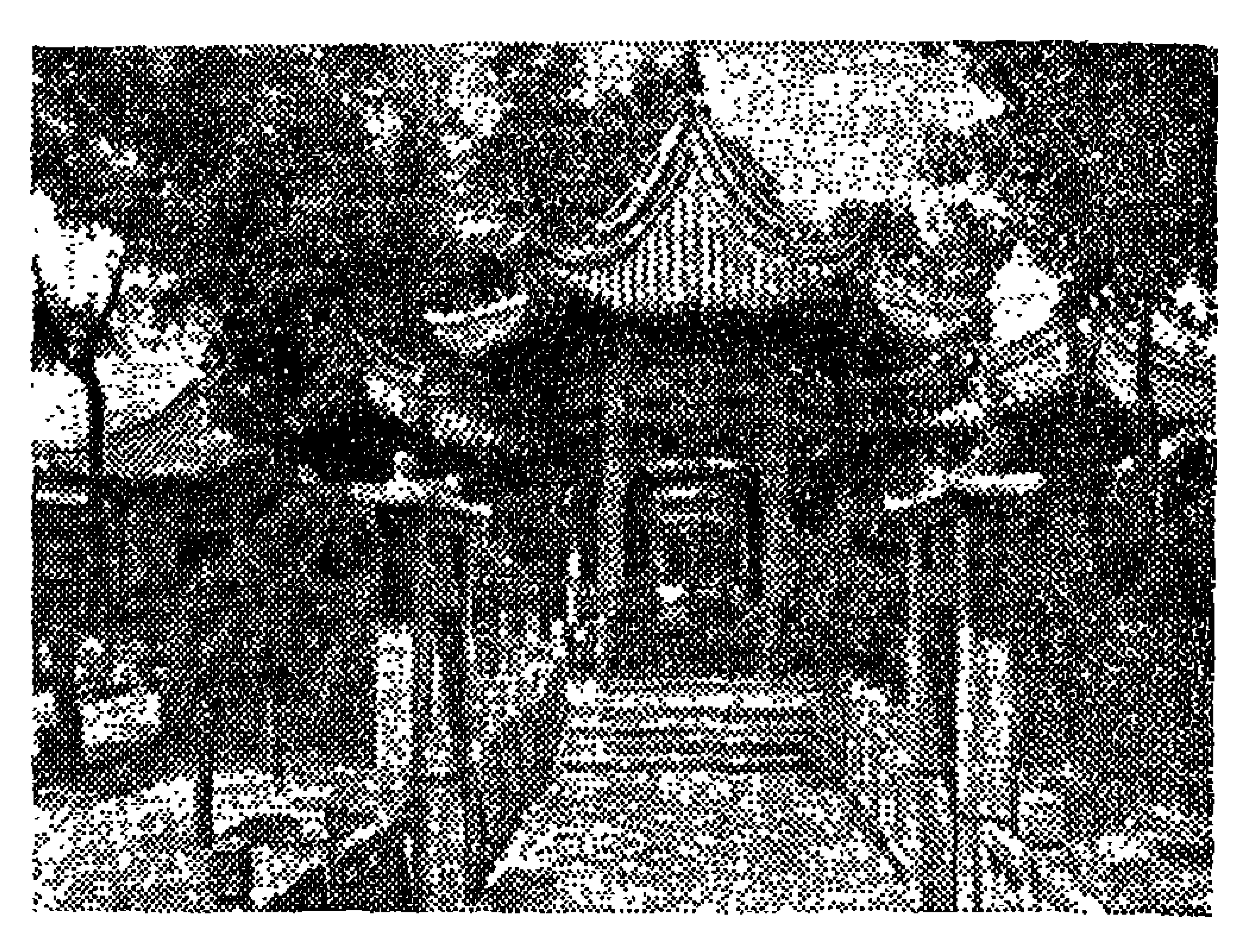
(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص١٦٩ـ١٧٧ والمراجع التى يشير اليها (طبعة مصر سنة ١٩٥٠) .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار جـ ٢ ص ١٥٩ طبعة القاهرة .

(٣) راجع عن هذه المدينة ص ٦١ و٧٦ و١٠٢ و١٦٦ و٢٦٦ من كتاب الدكتور سليمان حزين سالف الذكر .

(٤) وصل الينا وصف رحلة التاجر العربى سليمان فى بلاد الهند والصين الذى كتبه فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥١ م) وقد أضيف الى هذا الوصف ذيل =

« ان الله خص أهل الصين باحكام الصناعة وأنه منحهم فى ذلك مالم يمنحه غيرهم فكان لهم الحرير والغضائر الصينى «(١) » .



٢٤ ـ المسجد الجامع فى مدينة « سيان فو » (الصين) ـ عن كونل

= كتبه أبو زيد حسن فى نحو سنة ٣٠٩ هـ (٩٦١م) وقد نشر هذه الرحلة وذيلها المستشرق رينو Reinaud فى سنة ١٨١١ م ، مع ترجمة فرنسية لها سنة ١٨٤٥ ، ولخصها المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الاقصى ، وقدترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ونشرها فى مجلدين سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤

Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'extrême orient du VIII-XVIII siècles traduits, revus et annotés par Gabriel Ferrand, Paris 1913-1914.

وراجع أيضا زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام . (القاهرة ١٩٤١)

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥١ طبعة ليدن

الفن الاسلامى

(نشـأنه وعوامل نضوجه)

والآن بعد هذه الرحلة الطويلة التى بدأناها من أقصى العالم الاسلامى فى الغرب وانتهينا منهـا الى أقصاه فى الشرق قد آن لنـا أن نستقر وأن نستريح ثم نستعرض فى أذهاننا صورة العرب وقد خرجوا من صحرائهم وليس عندهم من مقومات الحياة الاجتماعية الا عناصر بسيطة ،وصورتهم وقد انتصروا بفئتهم القليلة وحضارتهم السـاذجة على تلك الأمم العظيمة العريقـة فى القـدم ، وصورتهم وقـد آثروا أن يبـدأوا حضـارتهم الجديدة من حيث انتهى السابقون عليهم فلم تستخفهم نشوة النصر الى القضاء على مالم يكن مألوفا لديهم بل ثبتوا أركان النظم التى كانت سائدة بين الأمم التى أخضعوها مادامت لاتتعارض مع المثل العليا للاسلام ،وتلك لعمرو الحق ميزة مـن مزاياهم اكتسبوها ــ أغلب الظن ــ مـن بيئتهم الجغرافية «[1]» التى دفعتهم الى الاشتغال بالتجارة مع الرعى ليتغلبوا على فقر بيئتهم ، وقد مهد لهم هذا الاشتغال بالتجارة سبيل الاختلاط بغيرهم من الأمم كما علمهم احترام أديان الغير ، فقل تعصبهم واكتسبوا مرونة فى أخلاقهم وأصبح لهم استعداد واضح لقبول كل جديد عليهم اذا ما اقتنعوا بفائدته .

(١) من خير مايوضح هذه الميزة من مزايا العرب أن نقارنهم بأمة أخرى كالاتراك مثلا ، فالعرب كما ذكرنا قد اضطروا بسبب فقر بيئتهم الى الاشتغال بالتجارة والرعى معا أما الاتراك فقد اقتصروا على الرعى وحده لتوفر الخيرات فى بيئاتهم فلم تعد لهم حاجة الى الاتجار مع غيرهم وبذلك استقلوا عن العالم الخارجى فى جميع شئونهم وأصبحوا متعصبين لعقائدهم ، شديدى الحرص على عاداتهم ، يحتقرون غيرهم ، ويؤمنون بأنهم أفضل الامم . وقد أيد التاريخ هذه الحقيقة الجغرافية فالعرب عندما غزوا مصر قضوا فيها على لغة أهلها وعلى دين الاغلبية منهم وطبعوا البـلاد بطابعهم بينما الأتراك قـد دخلوها وخرجوا منها وكأنهم لم يكونوا فيها مع أنهم قد مكثوا بها ثلاثة قرون أوتزيد.

وما كاد العرب يصعون عن كواهلهم عتاد الحرب ، ويطمئنون الى السلم حتى تدفقت عليهم الثروة من كل حدب وصوب ، وهموا يخرجون عن بداوتهم ولكن أبا بكر وعمر كانا لهم بالمرصاد فكبحا جماحهم ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، ثم جاء عثمان وكان حييا ليّنا فأفلت الزمام من يده ، وكانت البيئات الجديدة التى استقر فيها العرب قد أخذت تؤثر فى نفوسهم وتغريهم بالحياة المترفة ، فاندفعوا مع التيار ، وحرصوا على الاستمتاع بالحياة فتأنقوا فى مأكلهم وفى ملبسهم وفى مسكنهم ، وبدأت تختفى بالتدريج تلك الدور الساذجة التى سكنوها من قبل لتحل محلها قصور منمقة الجدران فخمة الأثاث ، ثم أحسوا وهم ينعمون بهذه الحياة الجديدة بما بين قصورهم ومساجدهم من بون شاسع ، فأقبلوا على المساجد يرفعون من شأنها بتشييدها وتنميقها اجلالا لها وتعظيما لقدرها وبعدا بها عن مواطن الاستهانة اذا ماقورنت بقصورهم الجميلة ، أو بتلك الكنائس الرائعة التى شاهدوها فى البلاد التى فتحوها . وقد كان مسجد المدينة أول مسجد يلبس ثوبا من الجمال الفنى على يدى الخليفة الثالث عثمان بن عفان اذ أعاد بناءه بالحجارة المنقوشة والقصة أى الجص ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقّفه بخشب الساج وحسّنه »[1] أى أنه جعل منه أثرا فنيا جميلا ترتاح له العين ويسر به الخاطر، وهكذا ولد الفن الاسلامى على يدى عثمان بن عفان .

وأقبل المسلمون فى عصر الدولة الأموية على التشييد والتعمير ، واستعانوا فى ذلك برجال الصناعة والفنون فى الأمم التى فتحوها ،وأسبغوا عليهم رعايتهم ، ووجد أولئك الفنانون فى ظل الحكام الجدد اعجابا بأعمالهم وتقديرا لما تخرجه أيديهم من أبنية قائمة أو تحف منقولة ، وكان طبيعيا أن تتحلى هذه التحف وتلك الأبنية بزخارف الفن البيزنطى فى الشام ومصر وبلاد المغرب ، وبزخارف الفن الساسانى فى العراق وايران ، وقد يجتمع

---

(١) Creswell, op. cit. vol I., p. 31 والمراجع التى يشير اليها .

كلا الفنين فى أثر واحد اذا ساهم فى انشائه وزخرفته فنانون من الرعايا السابقين لكل من بيزنطه وايران ، والآثار التى شاهدناها فى رحلتنا فى بلاد الشام ــ وهى أقدم الآثار الاسلامية وجودا ــ تفصح بتصميمها وزخارفها عن هذه الحقيقة اذ تتلاقى فيها العناصر الفنية لكل من الفنين السابقين ، فهى تزدان بمزيج من زخارف الفن البيزنطى وزخارف الفن الساسانى ، تزدان بخليط لم يمتزج بعد امتزاجا تاما ، ومن السهل بعد قليل من المران أن يتعرف الانسان على عناصر كل فن ، فالفن الاسلامى الصحيح كان لا يزال وليدا يحبو ولم يستقم عوده بعد .

وازداد تقدم المسلمين فى الدولة العباسية ، ولمسنا هذا التقدم عند انشائهم لبغداد التى خططوها على نمط جديد غير مألوف . وكشفت الحفائر الأثرية فى أطلال سامراء عن زخارف جديدة لها طابع خاص يميزها عن غيرها ، وأقبل علماء الآثار على دراستها دراسة تفصيلية وقسموها الى طرز شتى «[1]» ، وذاعت هذه الطرز فى معظم العالم الاسلامى ، ولم يقتصر استعمالها على تجميل الجدران المغطاة بالجص بل زينت بها الأخشاب والمنسوجات والزجاج وأصبحت هذه الطرز وسيلة تساعدنا على تأريخ ما قد يصادفنا من أبنية وتحف مجهولة التاريخ .

وضعفت الدولة العباسية ، وانقسم العالم الاسلامى الى دول كثيرة يجمعها الدين وقد تجمعها اللغة فى بعض الأحيان ، وبعد أن كان الفن العباسى أو فن سامراء هو صاحب المقام الأول فى زخرفة العمائر والتحف ، وكانت الفنون المحلية ــ اذا ما استعملت ــ فى المحل الثانى من الأهمية ، انعكست الآية وبدأت هذه الفنون المحلية تتطور وتنضج وتشق طريقها معتمدة فى ذلك على ماورثته من تقاليد فنية قديمة وما أتى به المسلمون عند الفتح أو بعد ذلك من موضوعات زخرفية اكتسبوها من البلاد الاسلامية

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ــ ص٢١ــ ٣٤ (مطبوعات دار الاثار العربية سنة ١٩٣٥ والمراجع التى يشير اليها)

الأخرى . وبهذا قد أصبحت لدينا طرز اسلامية شتى تختلف فى مظهرها تبعا للوطن الذى نشأت فيه وتتفق فى كمون الروح الاسلامية فيها ، فهناك مثلا الطراز المغربى والطراز الاندلسى والطراز المصرى والطراز السلجوقى والطراز العثمانى والطراز الايرانى والطراز الهندى ، ودراسة كل واحد من هذه الطرز تفتقر الى بحث قائم بنفسه ، على أننا نستطيع أن نعطى هنا — على سبيل المثال — كلمة موجزة عن الطراز المصرى الاسلامى .

فالفن الذى كان سائدا فى مصر منذ فتحها العرب حتى قيام أحمد بن طولون هو الفن القبطى الذى هو أحد الفرعين الرئيسيين للفن البيزنطى ، ولاغرابة فى ذلك لأن التغيير الفنى لا يتبع حتما التغيير السياسى ، والحدود التى تفصل العصور السياسية ليست هى بعينها الحدود التى تفصل العصور الفنية لأن التطور الفنى بطىء يفتقر الى وقت طويل لكى ينمو ويظهر . وفى العصر الطولونى ساد الفن العباسى واختفى الفن المصرى ، وفى العصر الفاطمى عاد الفن المصرى الى الظهور قويا جليا بعد أن تسربت اليه بعض العناصر الفنية التى حملها الفاطميون معهم ، وفى العصر الأيوبى دخلت عناصر أخرى حملها الأيوبيون — وهم من السلاجقة — الى البلاد ولكن ظلت روح الفن المصرى قوية ، وفى عصر المماليك بلغ الفن المصرى الاسلامى غاية نضجه وتجلى بصوره الرائعة فيما وصلنا من عمائر وتحف تزدان بها القاهرة ومتحفها الاسلامى ، ثم توقف هذا الفن عن النمو وظهر فى البلاد الفن العثمانى المتأثر بفن الركوكو Rococo «[1]» الأوربى ، ويتجلى هذا واضحا فى زخارف مسجد محمد على .

وهكذا ورث العرب الحضارات والفنون القديمة وتمثلوها حق التمثيل وصهروها فى بوتقتهم وأخرجوا منها بعد ذلك حضارة جديدة وفنا جديدا . ولقد عاون الدين الاسلامى بما تضمنه من نظم وتوجيهات على نضوج هذه الحضارة وسمو ذلك الفن .

---

(١) Reinach, Apollo, An Illustrated Manual of the History of Art throughout the Ages, London, 1928. p. 142, 144, 146.

فالحج ، والوقف ، والحسبة وموقف الاسلام من استعمال الذهب والحرير ، وموقفه من فنون الخط والزخرفة والتصوير والنحت كان لها فى الحضارة المادية من صناعة وفن أثر لاسبيل لانكاره .

أما الحج فهو أحد الأصول الخمسة التى بنى عليها الاسلام ، وهو فرض على كل مسلم يستطيع القيام به دون ارهاق أى أنه أمر للاغنياء بالسفر الى مكة حيث يجتمعون بغيرهم من المسلمين فيرون ألوانا شتى من الحضارة المادية ممثلة فى السلع المختلفة المصنوعة من القماش أو الخزف أو الخشب أو المعادن أو الزجاج أو العاج ، ويتبادل الحجاج هذه السلع عن طريق الاهداء أو التجارة ، وقد يجتمع رجال الصناعة بعضهم ببعض ويتشاورون فى طرق الصناعة لديهم ويحملون معهم أسرار الصناعة فى البلاد المختلفة ويؤثرون بذلك فى مصنوعاتهم المحلية .

وأما الوقف فنظام نشأ فى الاسلام استنادا الى أحاديث عدة أثرت عن النبى من أشهرها ذلك الحديث الذى ملخصه أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر فأتى النبى يستأمره فيها فقال له ان شئت حبّست أهلها وتصدقت بريعها »[1] ، ومنذ عهد عمر ونظام الوقف مستمر ، وقد اتسعت أغراضه حتى شملت معظم نواحى الاصلاح الاجتماعى فحبّست الأعيان على المساجد والمدارس والبيمارستانات ، وعلى المساكين ، وعلى الذين وهبوا حياتهم للعلم أو للدين ، والذى يهمنا من هذا النظام هو أن أول قواعده وأهمها عمارة الأعيان المحبوسة لضمان بقائها ودوام استغلالها . ونحن فى الواقع ندين له بالكثير مما وصل الينا من روائع العمائر والتحف الاسلامية ، كما ندين له أيضا بما نجده فى الوقفيات من وصف دقيق لهذه العمائر ، وبما نعثر عليه من الاصطلاحات الفنية . فهذا النظام فى الحقيقة قد ضمن استمرار نشاط الصناع والفنانين ، كما ضمن اضطراد حركة التطور فى الفنون المختلفة فلولا تلك الأموال التى أوقفت على العناية بالمنشئات لضاع هذا

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الشروط ب ١٩ جـ ٣ ـ وكتاب الوصايا ب ٢٢و٢٨ ـ جـ ٤ (طبعة بولاق ١٣١٤ هـ) .

التراث العظيم .

والحسبة وظيفة أوجدها الاسلام عندما رأى أن الانسان لاغنى له عن التعاون مع غيره وأدرك أنه لكى يستقيم أمر الجماعة لابد من ايجاد سلطة تلزم كل انسان حده ولا تترك مجالا للعبث بمصالح الناس ارضاء لشهوة جامحة أو نزوة طارئة ، وقد استمدت وجودها من آيات قرآنية عدة نجدها مفصلة فى كتب الحسبة «١» ، وقوام أعمال المحتسب جميع مايتصل بحياة الناس المدنية والدينية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،ويهمنا منها هنا أنها تدخلت فى شئون جميع الصناعات ورسمت للصناع السبيل السوى الذى ينبغى أن يسلكوه ، فالنساج والنجار والخزاف والوراق وغيرهم من الصناع لهم منهج خاص عليهم أن يتبعوه حتى يأمنوا عقاب المحتسب فى الدنيا وغضب الله فى الآخرة ، وروح هذا النهج اتقان العمل والاخلاص فيه وتجنب الغش والتدليس ، ولهذا أثره فى تحسين المنتجات الصناعية والعمل على رفع مستواها والعناية باخراجها فى أحسن صورة ممكنة . وقد خطت الصناعات الاسلامية بفضل اشراف المحتسب خطوات واسعة فى سبيل الرقى حتى بلغت الغاية القصوى وسمت عن دائرة الصنعة المألوفة الى مستوى الفن الجميل .

وموقف الاسلام من استعمال الأوانى المصنوعة من الذهب أو من الفضة ، ومن لبس الحرير ، قد نظمته الأحاديث النبوية دون القرآن الذى لم ترد فيه آيات تحرم استعمالها .

أما الأوانى المصنوعة من الذهب أو الفضة فالتحريم فيها ورد صريحا فى الأحاديث «٢» ، وقد كان هذا التحريم من العوامل المساعدة على ابتداع

(١) عبد الرحمن بن نصر الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ـ نشر السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٤٦) والمراجع التى يشير الناشر اليها .

(٢) نذكر على سبيل المثال حديثا جاء فيه « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم » ـ كتاب الاطعمة ب ٢٧ . ومما جاء فى حديث آخر « لاتشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الاخرة» كتاب الاشربة ب ٢٧ (صحيح البخارى ـ بولاق ١٣١٤ هـ)

الخزف المعروف عند المشتغلين بالآثار باسم الخزف ذى البريق المعـدنى Lustre pottery وهو خزف عادى عالجه الخزاف المسلم بوسائل صناعية واستطاع أن يخلق منه أوان لها بريق الذهب والفضة وفيها جمال الاخراج والصنعة ، وقد انتشرت صناعته فى العالم الاسلامى وبلغت حد الكمال فى العراق ومصر والاندلس . وقد أدى هذا التحريم أيضا الى ابتكار طريقة جديدة فى الصنـاعة هى تطعيم الأوانى المصنوعة من النحـاس أو البرنز بالذهب أو الفضة ، وهذا التطعيم أضفى على هـذه التحف جمالا فنيا يتضاءل بجواره جمال الأوانى المتخذة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة

أما الحرير فكان استعماله شائعا قبل الاسلام شـيوعا أخاف رجال الكنيسة ودفع بهم الى العمل على منع الناس من استعماله لما فيه من تبذير وامعان فى الترف الأمر الذى لا يتفق مع مبادىء الدين المسيحى «١» ولكنهم فشلوا فى محاولتهم هذه واشتد اقبال الناس على لبس الحرير . وعندما جاء الاسلام واجهته هذه المشكلة فوقف منها موقفا كان من أثره أن تقدمت صناعة الحرير على أيدى المسلمين ، فهو لم يحرم استعمال الملابس الحريرية كما يدعى كريستى خطأ «٢» ، ولكنه نظم استعمالها فأباحها للنساء من غير قيد ولا شرط «٣» ، ورخص للرجال فى ارتدائها عند الضرورة «٤» ، كما رخص أيضا فى ارتداء الثوب اذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع «٥» ، وكان من أثر ذلك ظهور طريقة جميلة فى زخرفة المنسوجات

---

(١) Clement of Alexandria, Paedag. II, 10.

(٢) Christie says, «Although silken garments have been specifically prohibited by the Prophet, the Muslims not only encouraged existing silk factories but established new ones whenever they went. So shameless and unrestrained was their interest in the forbidden luxury that they rapidly and surely gained a dominating position as leading silk-mercers in the medieval world». - Legacy of Islam p. 133.

(٣) صحيح البخارى كتاب اللباس ـ ب ٣٠ .

(٤) نفس المرجع ب ٢٩ .

(٥) نفس المرجع ب ٢٥ .

تعرف بطريقة التابسترى Tapestry. ولم تكن الرغبة الجامحة فى الاستمتاع بما حرمه الله ــ كمــا يقول كريستى ــ هى التى جعلت المسلمين يعنــون بالحرير وانتاجه ويملكون زمام صناعته ، وينشرون هذه الصناعة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويصبحون بحق زعماء تجــارته فى العصور الوسطى ولــكن هذا التنظيم الذى أتى به الاسلام هو الذى جعل للمسلمين هذه المكانة الممتازة فى صناعة الحرير وتجارته .

وقد وقف الاسلام من فنون الخط والزخرفة والنحت والتصوير مواقف مختلفة ، فقد آثر الخط برعايته ، وحبب الى الفنان نوعا من الزخرفة ، ولم يشجع على النحت والتصوير .

وقــد خص الاســلام الخط برعايتــه لأنه وثيق الصلة بالدين أقسم به الله فى كتابه الكريم فى سورة القلم وشرفه فى سورة العلق ، وقد نسب علماء التصوف ــ كما يقول ابن خلدون ــ الى الحروف العربيــة أسرارا خفية ، فهى تجلب ــ كما يدعون ــ الخير والبركة «[1]» ، وقد دفعت هذه العقيدة بالفنانين من المسلمين الى تزيين ما أخرجته أيديهم من المصنوعات

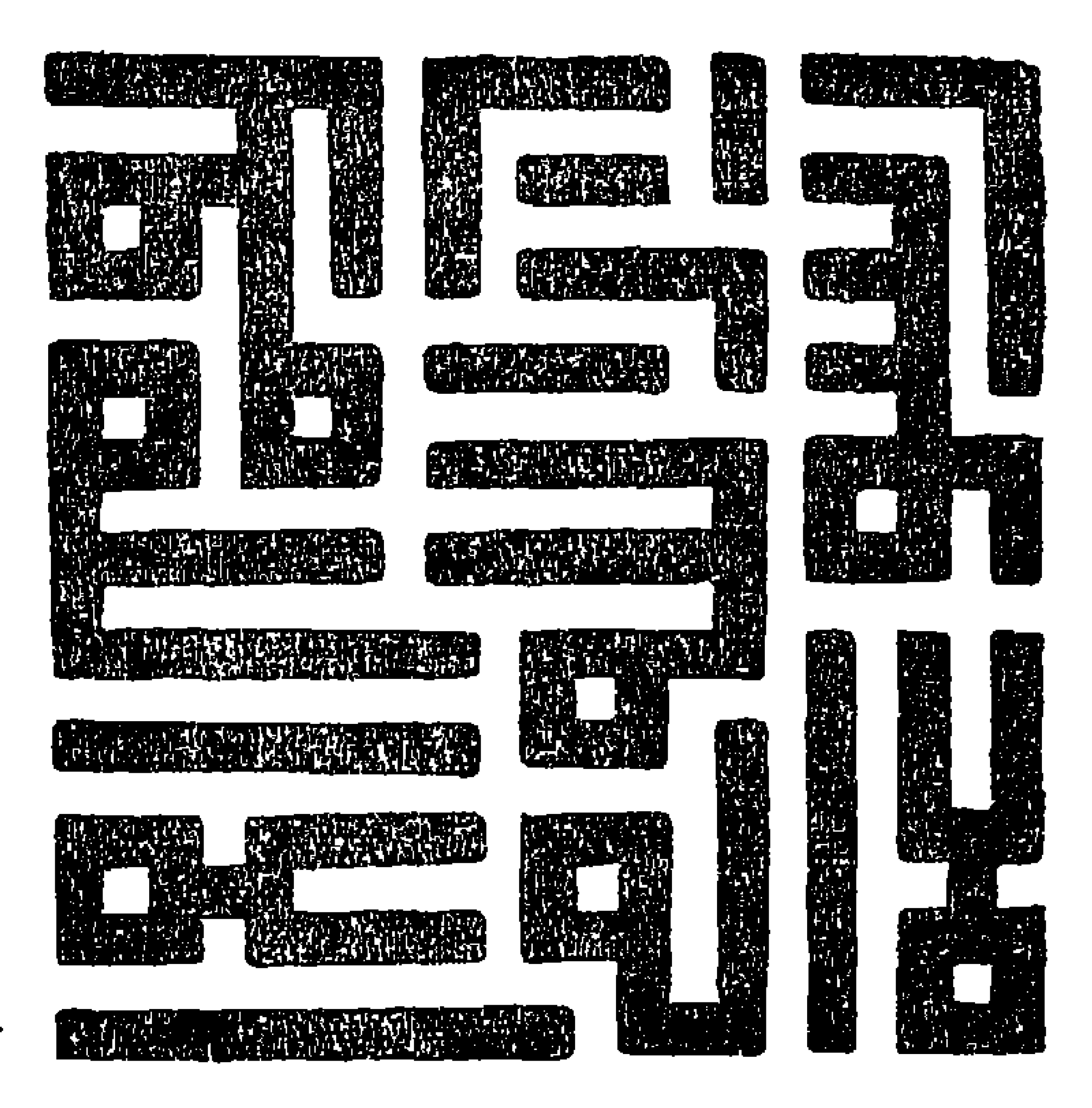


٢٥ ــ البسملة بالخط الكوفى من عصور مختلفة ــ عن يوسف أحمد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ــ٤٤٥ (المطبعة البهية المصرية) .

وماشيدوه من العمائر بالآيات القرآنية وبالعبارات الدينية وبالصيغ المختلفة للمدح أو الدعاء، وأصبح الخط مضروبا مشتركا في جميع فروع الفن الاسلامي: نراه على الخزف وعلى الخشب وعلى العاج والزجاج وعلى الطنافس والأقمشة كما نراه على جدران المساجد والقصور . وللخط العربي سبع صور : خط النسخ وهو الذي استعمل في الحياة اليومية للأغراض المختلفة، وقد تطورت صورته ، ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري بدأ استعماله على الآثار وفاز بمكان الصدارة فيها وللسلاجقة الفضل في ذلك . والخط الكوفي ينسب الى مدينة الكوفة التي كانت من أهم مراكز الثقافة العربية، وقد استعمل في كتابة المصاحف كما استعمل على الأبنية والتحف ، ولم تعد تكتب به النصوص التاريخية على الآثار بعد أن حظي الخط النسخ بمكان الصدارة . ولكي نعرف أصل الخط الثلث ينبغي أن نذكر أن العرب كانت تكتب على الدرج أي الملف المتخذ من البردي أو الورق أو الجلد ، وكان سدس الدرج يسمى الطومار وكان يكتب عليه بخط كبير يسمى خط الطومار «[1]» ، وقد تولد عن هذا الخط خط أصغر منه يبلغ ثلثه هو

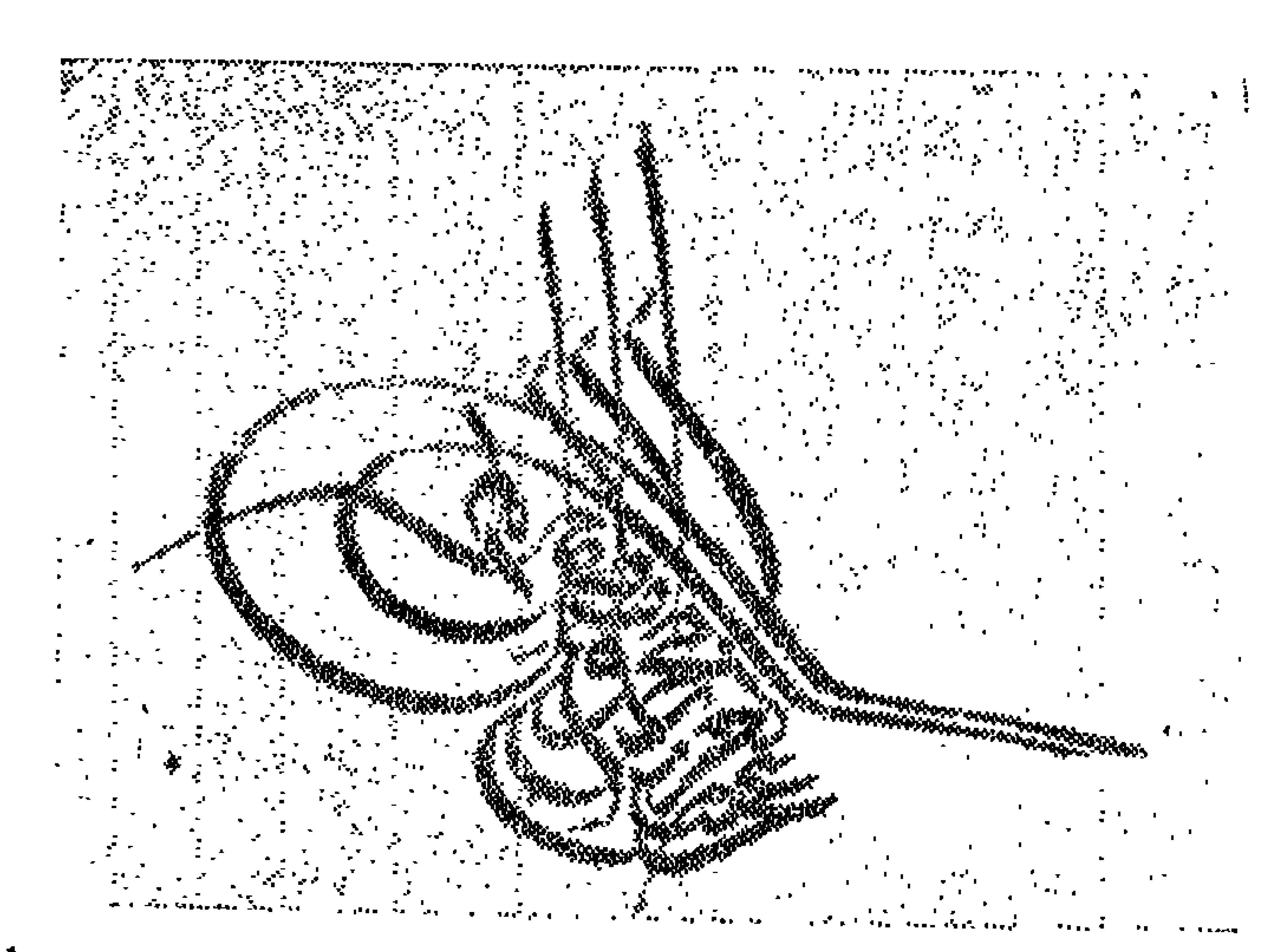


٢٦ – « لا اله الا الله محمد رسول الله » بالخط الكوفي المربع عن انس

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ص ٥٣–١٠٣ جـ ٣ (القاهرة ١٩١٤).

الذىعرف بخط الثلث . وخط التعليق وهو المعروف عندنا بالخط الفارسى وخط النستعليق وقد ولّده الفرس من الخط النسخ وخط التعليق «[1]» . وخط الرقعة والخط الديوانى وهما صورتان للخط العربى ابتدعهما الأتراك كما ابتدعوا أيضا صورة جميلة لتوقيع سلاطينهم تعرف بالطغراء ، وقد كانت تتوج بها الأوامر السلطانية فى العصر العثمانى وتنقش على العملة ، وللطغراء قصة طريفة تفسر لنا نشأتها فقد اضطر السلطان مراد الأول الى أن يعقد معاهدة مع أحد أعدائه ، وكتبت المعاهدة وقرئت عليه ثم قدمت له لكى يوقع عليها ،ولما كان أميًّا لايعرف القراءة ولا الكتابة فقد دهن يده اليسرى بالحبر ثم طوى ابهامه ومد أصابعه الثلاثة التالية الى أعلى وترك خنصره منفرجا قليلا عنها ثم ضغط بيده على المعاهدة فاذا صورة قريبة من صورة الطغراء التى نعرفها قد ظهرت على الورقة ، وتناول كاتبه هذه الورقة وكتب فى داخل الصورة اسم السلطان واسم أبيه ثم لقب « خان » وعبارة « عز نصره » «[2]» .



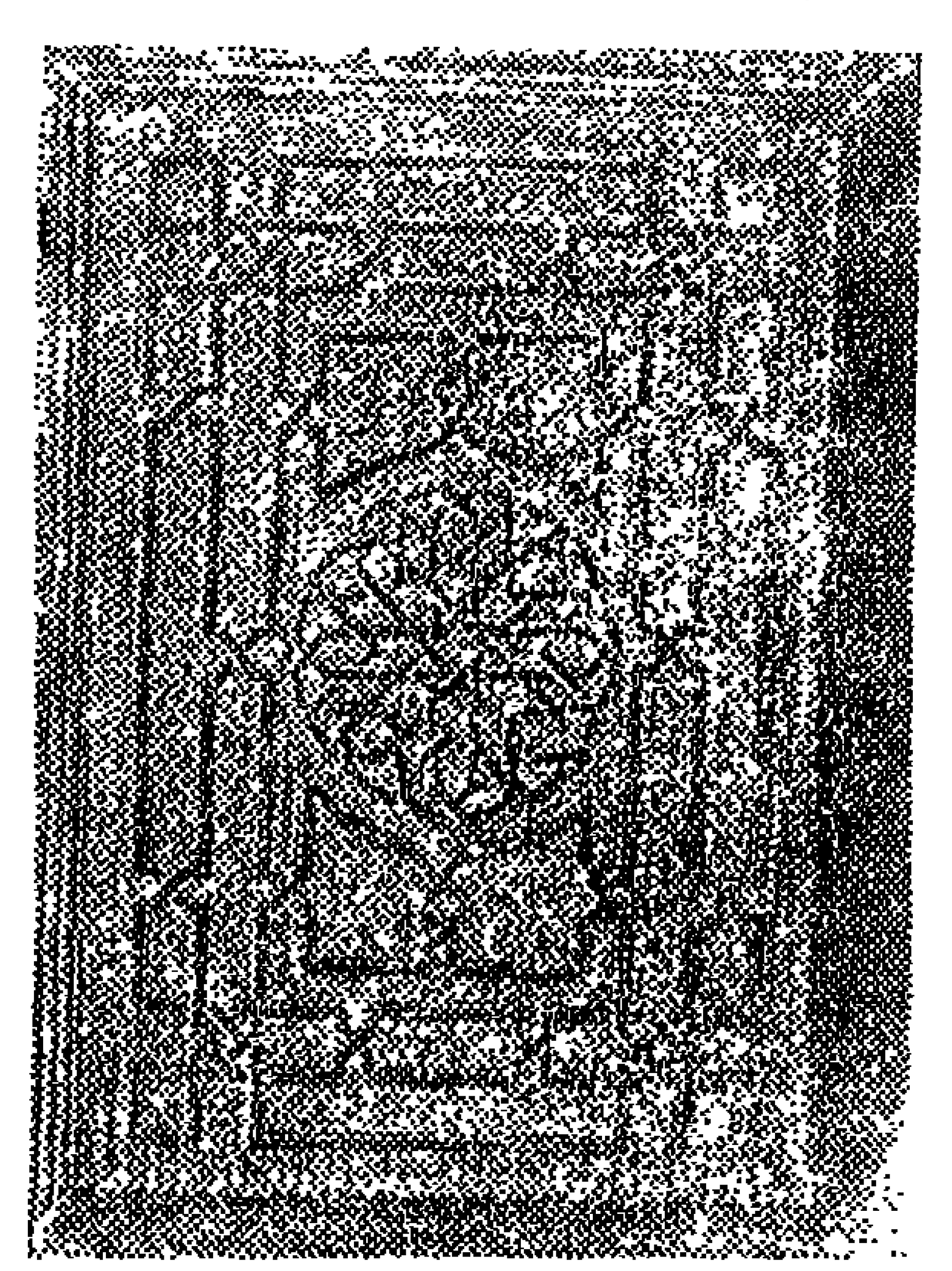
٢٧ ــ طغراء السلطان عبد العزيز بن محمود خان المظفر دائما ــ عن لين بول

(١) Pope, op. cit. vol. II p. 1707-1742

(٢) Lane-Poole, Turkey, p. 328-329.

وقد حبب الاسلام الى الفنانين الزخارف النباتية والزخارف الهندسية، فقد روى فى صحيح البخارى عن سعيد بن أبى الحسن حديثا عن النبى جاء فيه « كنت عند ابن عباس رضى الله عنهما اذ أتاه رجل فقال يا ابن عباس انى انسان انما أعيش من صنعة يدى وانى أصنع هذه التصاوير ، فقال ابن عباس لا أحدثك الا ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، سمعته يقول من صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدا ، فربا الرجل ربوة واصفر وجهه فقال ويحك ان أبيت الا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شىء ليس فيه روح «(1)» » . وفى هذا الحديث توجيهان للفنان : الاول أن يعنى برسم الشجر أو بعبارة أدق برسم الزخارف النباتية، والثانى أن يقبل على رسم ما ليس فيه روح فاهتم بالزخارف الهندسية وعنى بها عناية كبيرة .

ومن أخص ما يتجلى فيه جمال الفن الاسلامى فى هذه الناحية تلك

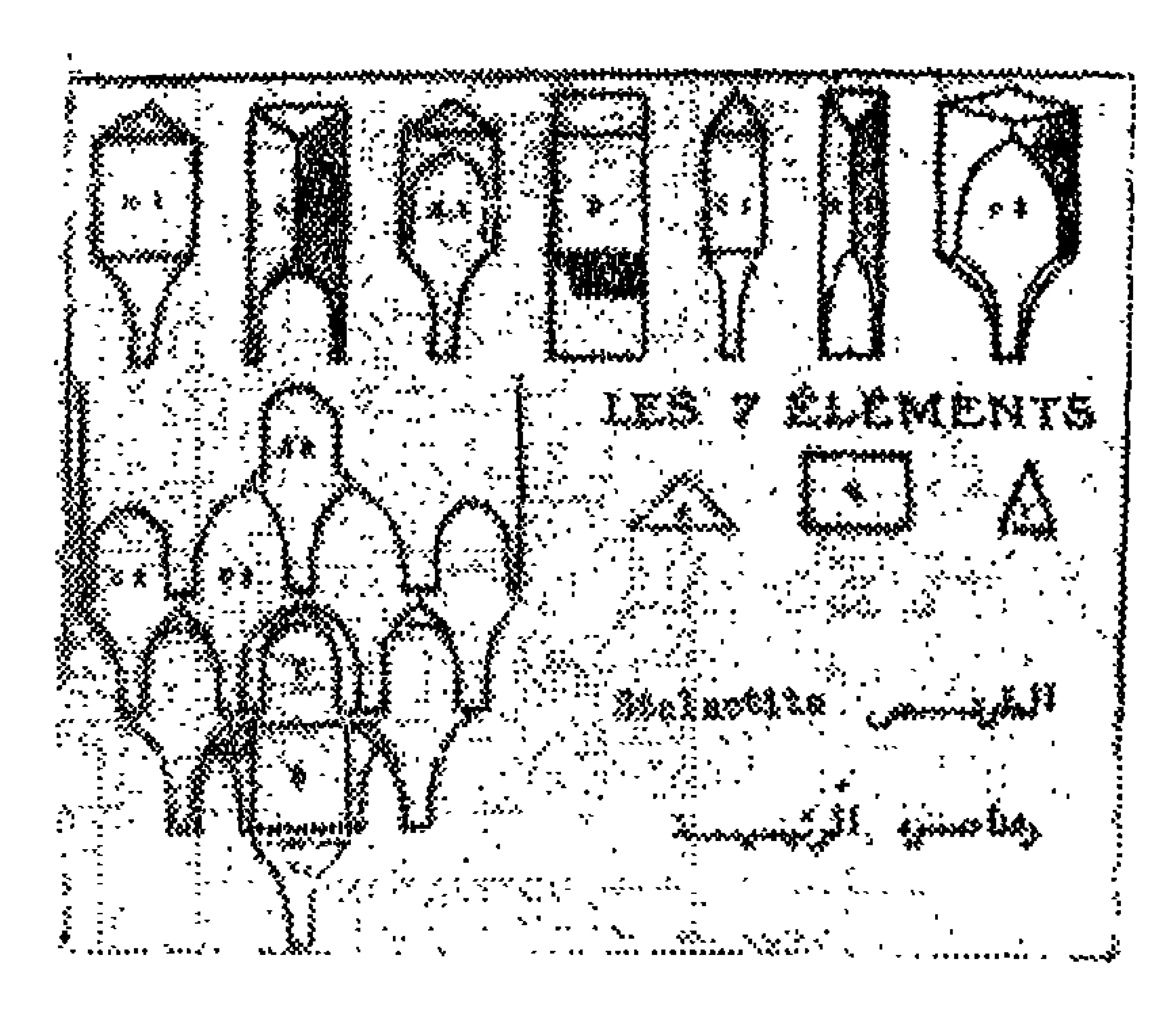


٢٨ ــ زخرفة هندسية تتجلى فى جلدة كتاب اندلسية ــ عن كونل

---

(1) البخارى ــ كتاب البيوع ب ١٠٤ ص ٨٢ جـ ٣ .

Lamm, The Spirit of Moslem Art, p. 4 (Extrait from the Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, vol. III. part. I).

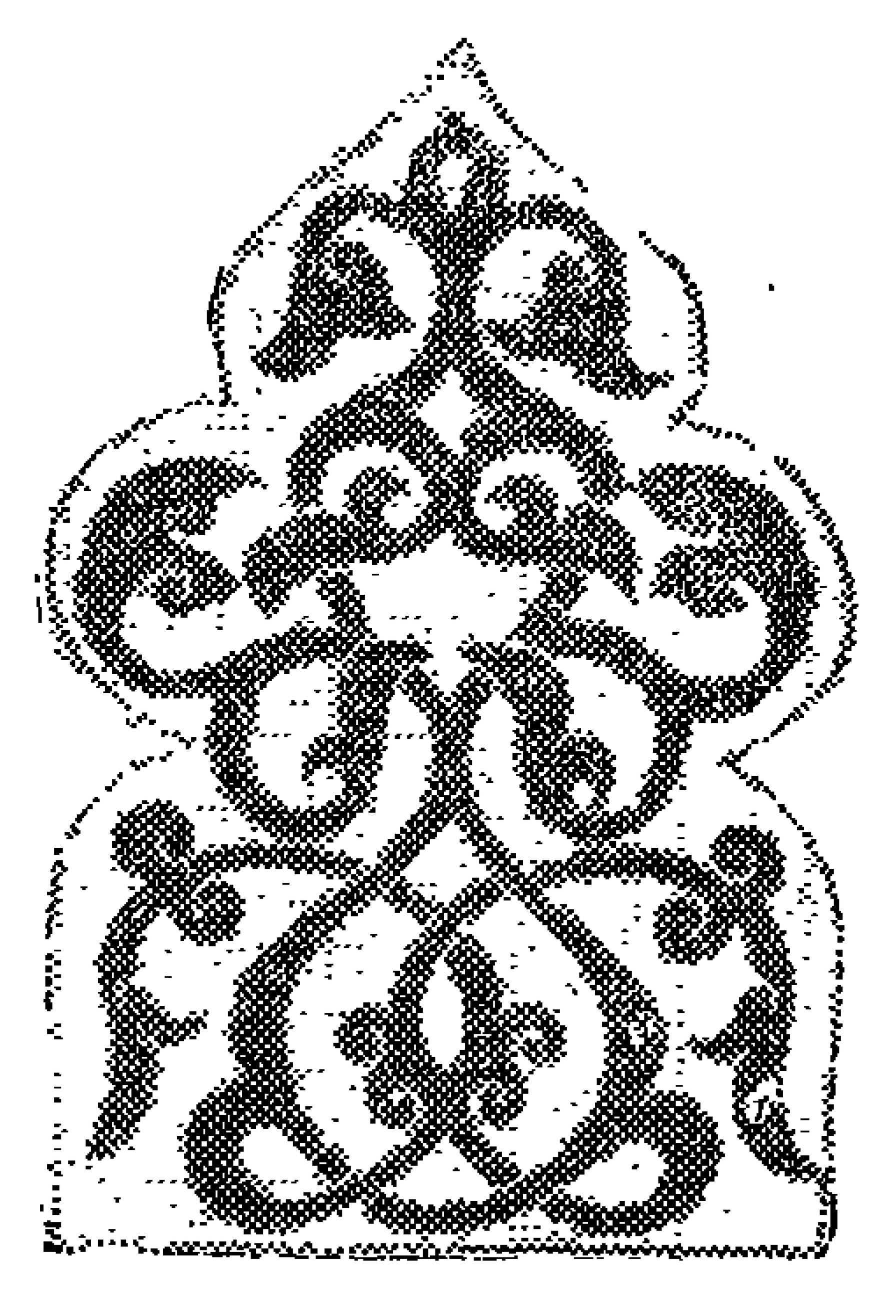


٢٩ ــ العناصر الرئيسية التى تتكون منها الزخرفة المعروفة بالمقرنص

الزخرفة المعروفة باسم المقرنصات stalactites وهى تعد من أبرز خصائص هذا الفن . وكلمة مقرنص غريبة على اللغة العربية ولعلها عربت عن الكلمة اليونانية « كورنيس » ثم حرفت الى مقرنص . أما كلمة stalactite فتعنى فى الأصل الرواسب الكلسية المخروطية الشكل التى تتـدلى من أسقف بعض الكهوف ، وهى فى الواقع غير دقيقة فى التعبير عن الصور المتعددة لهذا النوع من الزخرف اذ هى لاتصدق الا على صورة واحدة منه مع تعدد صوره. وتستمد هذه الزخرفة أصلها من الكوة niche التى تقـام فوق الزوايا الاربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبـة والتى بواسطتها يستطيع البنّاء أن يوجد سطحا يمكن للقبة أن تستقر عليه ، وقد ورث المسلمون هذه الطريقة عن السوريين والفرس واستخدموها فى عمائرهم ولـكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلا على سذاجتها ، بل ماكاد يتهذب ذوقهم وترتقى ملكتهم الفنيـة حتى أخذوا يعدلون فى شكل هذه الـكوة ، ويعقدون فى مظهرها فقسموها الى كوى صغيرة متعـددة تفننوا فى وضعها وتنسيقها وتزيينها حتى بدت قطعا من الفن الجميل كلما تأملت فيهـا غمرتك بلذة روحية وزادتك يقينا بعظمة الفن الاسلامى ، وقد شاء لهم خصبهم الفنى أن لايقفوا بها عنـد حد استعمالها تحت القباب بل اتخـذوا منها وسيلة

لتزيين الأبنية فى مواضع شتى «[1]» .

وقد ابتدع الفنان المسلم نوعا من الزخرفة النباتية عرف باسم «الارابسك Arabesque «[2]» أو « التوريق » «[3]» أو « الرقش » كمـا سماها أخيرا الاستاذ بشر فارس «[4]» .



٣٠ ــ التوريق « الارابسك » عن كونل

ولم يشجع الاسلام على النحت والتصوير ، والواقع أن الفن الاسلامى لم يصل فى فن النحت أو بعبارة أدق فى صناعة التماثيل الى الدرجة التى سمت اليها كثير من الفنون القديمة السابقة عليه كالفن اليونانى مثلا . وقد يتبادر الى الذهن أن فى هذا القصور مايعد مأخذا على الفن الاسلامى ودليلا على تأخر المبدعين له ، ولكن الواقع غير ذلك اذ ليس فيه مايزرى

(١) راجع ٨٧و٨٨ من كتـاب مساجد القـاهرة للمؤلف ثم المراجع التى يشير اليها فى ص ١١٥ من الكتاب المذكور .

(٢) راجع مادة «Arabesque» فى دائرة المعارف الاسلامية ــ وراجع أيضا Kuhnel, Die Arabeske, Wiesbaden, 1949.

(٣) أرشدنى تلميذى حضرة السيد محمود عبد العزيز الطالب بالبعثـة الى الكلمة الاسبانية «Ataurique» التى تعنى الزخرفة النباتيـة ، وأغلب الظن أنها مشتقة من الكلمة العربية التوريق ، وهى كلمة تؤدى معنى الأرابسك وان لم تكن جامعة مانعة لان الارابسك قد تنطوى فى بعض الاحيان على زخرفة هندسية أوكتابية أو حيوانية أو نباتية ، وهذه الاخيرة تكون عادة هى الغالبة .

(٤) بشر فارس : سر الزخرفة الاسلاميـة (مصر سنة ١٩٥٢) ــ من مطبوعات المعهد الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة .

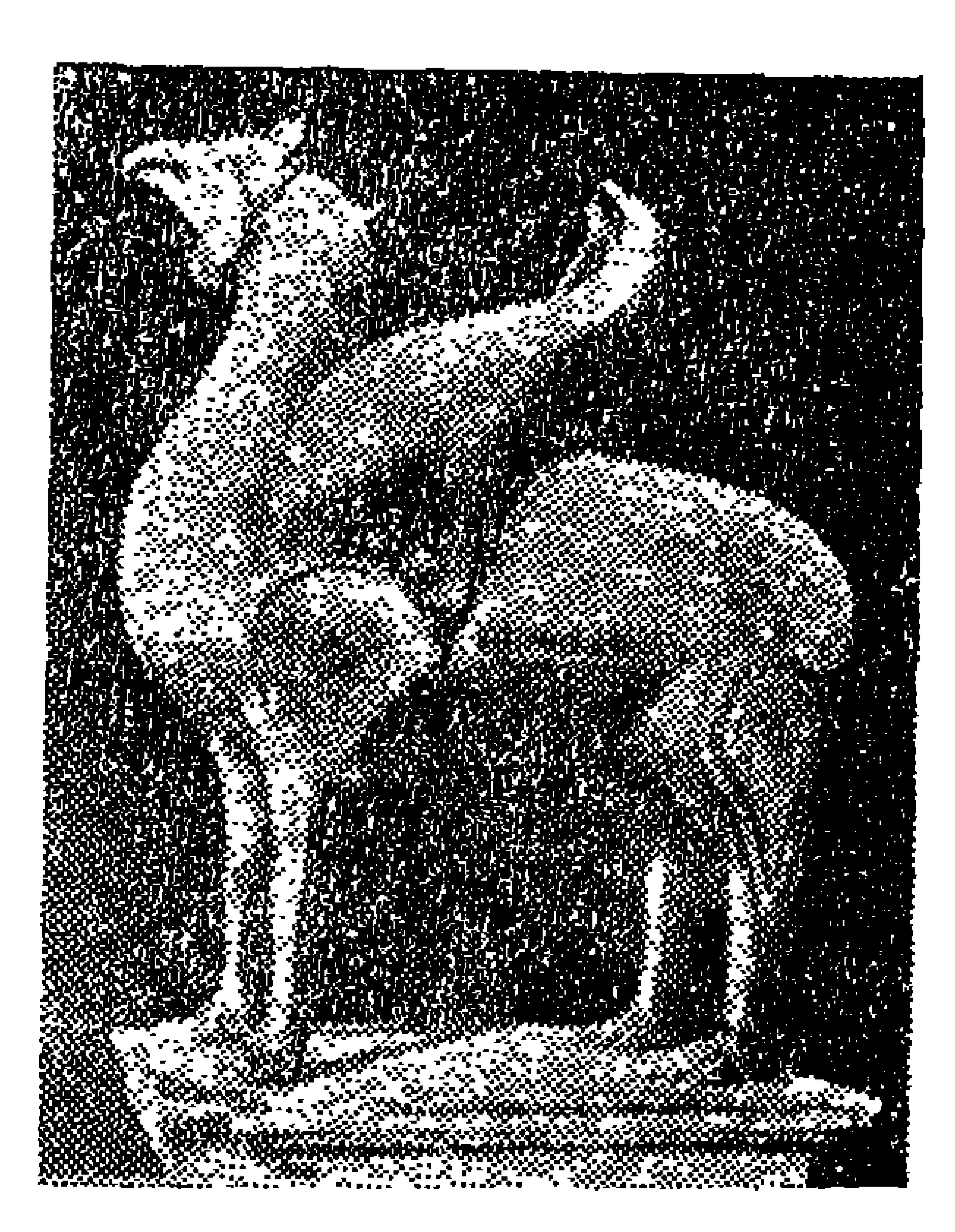
بمكانة هذا الفن بين الفنون الأخرى لأن لكل فن بيئته التى نشأ فيها ، والعوامل التى تحكمت فى نشأته ، والمصادر التى استمد منها عناصره . فاليونان القدماء نشأوا فى بيئة يتوفر فيها الرخام فاتخذوا منه مادة لاعمالهم الفنية ، وقد هداهم تفكيرهم الى أن يتخيلوا آلهتهم على هيئة الانسان فنحتوا من الرخام تماثيل لهذه الالهة ، وأفرغوا جهدهم فى نحتها فخرجت من بين أيديهم رائعة جميلة متناسقة الأبعاد موزونة الأجزاء حتى لتعتبر اليوم المثل الأعلى فى فن النحت . أما العرب فلم يكن فى بيئتهم الصحراوية التى نشأوا فيها مايشجع على نحت التماثيل ، ولم يكن فى حياتهم الفكرية مايحفزهم على نحتها كما كان الحال عند اليونان، وقبيل ظهور الاسلام كان يسود البلاد المحيطة بهم فنان هما الفن البيزنطى والفن الساسانى ، ولم يكن كلاهما يعنى بالتماثيل عناية الفراعنة أو اليونان أو الرومان بها ، وعندما جاء الاسلام خرج العرب من جزيرتهم ينشرونه فى ربوع الأرض ويتأثرون بحضارة البيزنطيين وحضارة الفرس كما ذكرنا من قبل ، ويشاهدون الآثار الفنية لهاتين الأمتين فلم يعنوا بعمل التماثيل أسوة بهما خصوصا وقد أعلن الاسلام الحرب على الوثنية ، واعتبر القرآن الكريم الأنصاب رجسا من عمل الشيطان على المؤمنين أن يجتنبوه «[1]»، وقد فصّلت الأحاديث النبوية القول فى هذا الأمر فبينت اثم من يصنع هذه التماثيل «[2]» ، وقد أدرك أسلافنا أن التحريم منصب على التماثيل التى تعبد من دون الله وحدها، أما تلك التى تتخذ لغير هذا الغرض فلم يتحرجوا من استعمالها فزينوا بها قصورهم وصنعوها على هيئة الانسان تارة وعلى هيئة الحيوان أخرى ، ونذكر على سبيل المثال ماكشفت عنه دائرة الآثار الفلسطينية فى قصر هشام بخربة المفجر حيث عثر على تماثيل من الجص لآدميين وحيوانات بعضها كامل

---

(١) سورة المائدة ــ آية ٩٣ ــ والانصاب ــ كما فسرها النسفى ــ هى الأصنام أى التمائيل التى تعبد من دون الله .

(٢) راجع مفتاح كنوز السنة تأليف فنسنك وترجمة محمد فؤاد عبد الباقى للوقوف على جميع الاحاديث التى وردت بشأن التصوير ، مع العلم بأن التمثال ليس الا صورة مجسمة ــ ص ٨٣ (مصر ١٩٣٤) .

وبعضها فقد معظم جسمه «١» . وفى متاحف كثيرة فى أوربا تماثيل اسلامية شتى من الجص ومن الحجر ومن المعدن «٢» وجميعها لايتوفر فيها الاتقان الفنى الذى نشاهده فى تماثيل الفراعنة أو اليونان أو الرومان .



٣١ – تمثال من البرنز يمثل حيوانا خرافيا – عن جلك وديز

والتصوير كالنحت لم يصل عنـد المسلمين الى المستوى الرفيع الذى اصطلح عليه الباحثون فى الفنون ، واذا كان القرآن قد خلا من نص صريح أو غير صريح بصدد هذا الفن فان الأحاديث النبوية قد تنـاولته من زوايا متعددة ، ويكفى أن نقول أن بعضها يترخص فى التصوير على الفرش وما أشبهها ، وبعضها يبيح تصوير ماليس فيه روح ، والكثير منها يلعن المصور ويلعن بيع الصور ، وقد فسر الفقهاء هـذه الأحاديث تفسيرا ألقى ظلا من الشك حول مزاولة هذا الفن أو العناية به ، ولكن على الرغم من ذلك فقد غزا الفنانون المسلمون بالتصوير جميع فروع الفن الاسـلامى من أبنية

---

(١) Baramki, op. cit. figs. 2, 10, 11, 12, 13 & 14.

(٢) فى القسم الاسلامى بمتحف برلين ، وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك تماثيل آدمية من الجص ، وفى متحف اسطنبول وفى متحف قرطبة وفى قصر الحمراء تماثيل حيوانية من الحجر ومن المعدن .

وأخشاب وعاج ومعادن وزجاج وخزف ومنسوجات ومخطوطات ، وقد تجلت عبقريتهم فى الصور الصغيرة Miniatures التى تزين المخطوطات اذ شغف المصورون المسلمون بتوضيح كتب العلم والدين والأدب والتاريخ بصور تفسر بعض ماتتضمنه من بحوث ونصوص «١» • ومن الحق علينا أن نبرىء الدين الاسلامى من تهمة تحريم التصوير التى ألصقها به بعض المتزمتين من فقهاء المسلمين «٢»، فالأمر الذى لامجال للشك فيه هو أن القرآن ترك لنا أمر التصوير لنرجع فيه الى حكم العقل وسنن التطور والرقى ،



٢٢ ــ صورة تمثل صعود النبى الى السماء ليلة الاسراء
من مخطوط فارسى بالمتحف البريطانى ــ عن كونل

---

(١) راجع عن فن التصوير : كتاب التصوير عند الفرس للدكتور زكى محمد حسن (مصر ١٩٣٩) ، والتصوير عند العرب لاحمد تيمور (نشر وتعليق الدكتور زكى محمد حسن ــ مصر ١٩٤٢) والصور الاسلامية للمؤلف (نشر فى مجلة الهلال ــ عدد ابريل ١٩٤٣) والرسوم الجدارية الاسلامية فى البرطل بالحمراء للدكتور جمال محرز (مدريد ١٩٥١) .

(٢) راجع بحثا للاستاذ أحمد محمد عيسى عن « الاسلام والتصوير » نشر فى مجلة الازهر فى أعداد رجب وشعبان وشوال من سنة ١٣٧٠ هـ وعددى صفر وجمادى الاولى من سنة ١٣٧١ هـ .

وفي الحق أن الدين الذى لم يتعرض لنظام الخلافة مثلا — وهو أشد خطرا فى حياة المسلمين من التصوير بل ترك ذلك لهم يسيرون فيــه على النهج الذى يتلاءم وظروفهم ، ويستعينون فيه بتجارب من سبقهم من الأمم — لأسمى من أن يتعرض بالتحريم لأمر يتصل بسمو الحياة البشرية وتطورها، ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر على التصوير دوره الخطير فى الحياةالعلمية والشئون الاجتماعية للأفراد والجماعات ؟ .

تسرب الفن الاسلامى الى اوربا

وأثره فى فنونها .

هذا الفن الذى رأينا مولده ونشأته ، وعرفنا العوامل المختلفــة التى ساعدتعلى نضوجه واستكمال شخصيته ، ووقفنا على سر تخلفه فىمجالى النحت والتصوير ، قد أخذ يتسرب الى الأوربيين ويحملهم على الالتفات اليه . وقد جاء ذلك عن طريقين رئيسيين : طريق السلم وطريق الحرب . فعن طريق السلم عرفه الأوربيون أولا عند حجهم لبيت المقدس ، ولايغيب عن الذهن أن عدد هؤلاء الحجاج لم يكن فى العصور الوسطى قليلا ، فقد كانت سيطرة الدين حينئذ على النفوس قوية عظيمة ، وكان النــاس أكثر اشتغالا بأمور دينهم عما هم عليه الآن . وثانيا عندما تبــادل التجار منهم سلعهم مع سلع التجــار المسلمين الذين وفدوا الى بلادهم وهم يحملون أجمل ما أخرجته مصانع الشرق من شتى المصنوعات ، وأفخم ما أبدعتــه أنوالهم من الطنافس والمنسوجات «[١]» . وثالثا عن طريق الهدايا التى كان يبعث بهاسلاطين المسلمين وأمراؤهم فىالمناسبات المختلفة الى ملوك أوربا وأمرائها

وعن طريق الحرب ازدادت معرفة الأوربيين بالفن الاســلامى ، أولا عندما غزت جيوش المسلمين بعض أنحاء أوربا : ففى الأندلس ، وفى جنوب فرنسا ، وفى صقلية ، وفى جنوب ايطاليا ، وفى بولنــده ، وفى اليونان عاش المسلمون ردحا من الزمن اختلفت مدته باختــلاف الظروف التى أحاطت بهم ، وشيّدوا لأنفسهم فى بعض تلك البلاد العمائر المختلفة من مســاجد

(١) Legacy of Islam, p. 100.

وقلاع وأسوار وقصور ، كما أنشأوا بعض الصناعات . وقد ضاع الكثير من معالم حضارتهم ولم يبق الا القليل ، وقد تأثرت الفنون المحلية فى هذه البلادبالفن الاسلامى ، ومنذ بدأت العنـاية بدراسة الآثار الاسلامية اتجه فريق من العلماء الى دراسـة تلك العناصر الفنيـة التى تسربت من الفن الاسلامى الى فنون أوربا وجلوها على النـاس فى صورة واضحة «١» .
كذلك لعبت الحروب الصليبيـة دورا هاما فى هـذا الصدد فقـد غزت جيوش أوربا بلاد الشرق ، ورأت تلك الجيوش الكثيرة معـالم الحضارة الاسلامية والآثار العظيمة للفن الاسلامى عن كثب ، وآمنوا عن يقين أن المسلمين قد وصلوا الى ذروة التقـدم ، وأنهم ليسوا برابرة متأخرين كما كانوا يظنون من قبل . فعن طريقهذا الاتصالوعن طريقالامارات الأوربية التى أسسها الصليبيون فى بعض بلاد الشام والتى استمرت فترة من الزمن اتسعت دائرة معرفة الأوربيين بالفن الاسلامى اتساعا عظيما .

ونستطيع أنذكر الآن فى ايجاز بعضمانشاهده فىفنون أوربامنتأثيرات الفنالاسلامىالذى أصبحتله فىالواقع مكانةممتازة بينفنونها.ففىالعمارة قد أثر المسلمون بعقودهم وشرفات عمائرهم ومآذن مساجدهم فيما بنـاه الأوربيون منعمائر.أما الخط العربىفقد أعجببه الأوربيونفقلدوهونقلوا بعضالعبارات العربية نقلا صادقا دونأنيعرفوا ماتحمله وراءها منالمعانى ، ولم يمنعهم جهلهم هـذا من أن يتخذوا من هـذه العبارات أداة لتزيين مصنوعاتهم ، ولقد أشار كريستى «٢» الى مثال طريف فى هذا الصدد هو

(١) كتب برتو فى سنة ١٨٩٥ عن الفن الاسلامى فى جنوب ايطاليا

Bertaux , Les Arts de l'Orient Musulman dans l'Italie Meridionale.

وكتب الدكتور أحمد فكرى فى سنة ١٩٣٤ بالفرنسية عن التأثيرالاسلامى فى الفن الرومانى فى جنوب فرنسا

Fikry, l'art Roman de Puy et les influences Islamiques.

ونشر ماتكوسكى بحثا عن أثر الفن الاسلامى فى بولنده فى مجلة جامعـة متشيجان

Mankowsky, Influences of Islamic Art in Poland,
Ars Islamica, Vol. II, p. 93-117.

(٢) **Christie Islamic Minor Arts and their influence upon European Work, (Legacy ef Islam, p. 13).**

=

ذلك الدينار الموجود فى المتحف البريطانى الذى يحمل على أحد وجهيه كتابة كوفية نصها « لا اله الا الله وحده لاشريك له » وعلى الوجه الآخر عبارة لاتينية نصها « Offa Rex »[1] وعلى حافته « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وهى الآية الكريمة التى كانت تنقش على العملة الاسلامية كما ذكرنا من قبل «[2]» .
وأغلب الظن أن الصانع الأوربى الذى ضرب هذا الدينار والملك الذى أمر بضربه يجهلان مدلول هذه العبارات العربية ولو أنهما عرفا ذلك مارضيا بنقشها لتنافرها مع عقيدتهما الدينية ، ولكنه الفن الاسلامى كما يتجلى فى الكتابة الكوفية على الدنانير الاسلامية التى كانت معروفة عندئذ فى أوربا «[3]» كان الدافع الى ذلك . واذا كان من الفنانين الأوربيين من أحسن نقل العبارات الأوربية فان كثيرين منهم قد قلدوا الحروف العربية تقليدا يشعرك لأول وهلة بأنها كتابة عربية فاذا دققت النظر فيها لم تجدها كذلك ، كما أن بعض الفنانين قد حاول أن يكتب الحروف العربية بصورة تقرب فى

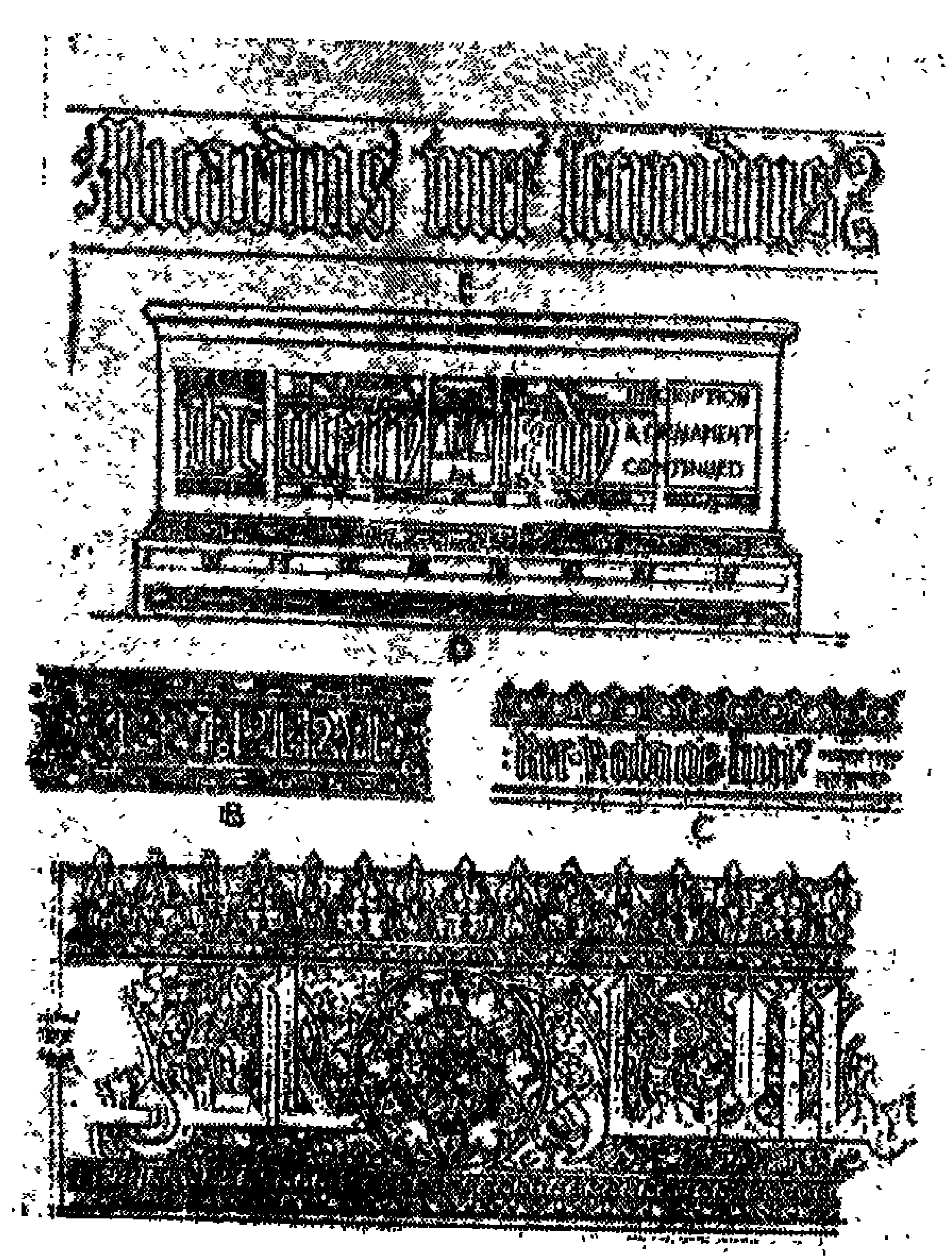
= وراجع أيضا الترجمة العربية لبعض فصول هذا الكتاب بقلم الدكتور زكى محمد حسن (تراث الاسلام جـ ٢ ص ١٧) .
ويلاحظ أن عبارة Minor Arts الواردة فى عنوان هذا البحث أصبحت اليوم فى الواقع غير مقبولة لان الفنون الجميلة عند المسلمين ونعنى بها هنا فنون العمارة والحفر والنقش والنحت والتصوير — ليس فيها ماهو فرعى minor وما هو أصلى major بل كلها فى الاهمية لدى الفنان سواء وذلك على عكس الحال عند الغربيين — وهم الذين وضعوا أسس دراسة هذا التراث الفنى كما رأينا فى هذا البحث — الذين يفرقون عادة بين مظاهر الفنون الجميلة ، ففنون النحت والتصوير هى عادة من انتاج فنانين artists لهم فى الهيئة الاجتماعية مكانة ملحوظة أما ماعداهما من فنون زخرفة الامتعة المنقولة فهو من عمل صناع artisans وهى لذلك فى المحل الثانى من الاهمية ولاتعتبر فى نظر الاوربيين تحفا نفيسة بمعنى الكلمة ولكن المسلمين قد جمعوا بين الفن والصناعة فى كل ما أخرجته أيديهم يستوى عندهم فى ذلك آنية الامير المتخذة من النحاس المطعم بالذهب والفضة وآنية الفقير المصنوعة من الفخار « ولعل اصدق عبارة تستبدل بها كلمة minor arts هى decorative arts أى الفنون الزخرفية »

(١) كان الملك أوفا يحكم مملكة مرسيا Mercie احدى الممالك الصغيرة التى كانت تنقسم اليها الجزائر البريطانية فى العهد الانجلوسكسونى .
(٢) أنظر ص ١٦ من هذا الكتاب .
(٣) Legacy of Islam, p. 100

شكلها العام من صورة الحروف الكوفية ونجحت هـذه المحاومة وتجلت أروع ماتكون فى الكتابة القوطية « Gothic » التى شاع استعمالها فى أوربا فى العصور الوسطى ٠

وقد درس الفنانون الأوربيون فىعصر النهضة الزخرفة الاسلامية وانتشرت بين الصنـاع والفنانين فى أوربا كتب بهـا نماذج من الزخارف الاسلامية لكى يستعينوا بها على تزيين مصنوعاتهم ، ووصلت الينا بالفعل كراسةللمصور الايطالى ليوناردو دافيتشى بها تخطيط لزخرفة اسلامية ٠

ولقد تعلم الاسبان من المسلمين فى الأندلس صناعة الخزف ذىالبريق المعدنى الذى أشرنا اليه منقبل «[1]» ، وقد انتشر فى أوربا بواسطةالاسبان



٣٣ ـ الخط القوطى المتأثر بالخط الكوفى ـ عن تراث الاسلام

(١) أنظر ص ٦٣و٦٤ من هذا الكتاب ٠

وأقبل صناع الغرب على تقليده حتى لقد زينوا أوانيهم بما يشبه الكتابة الكوفية امعانا فى صبغها بالصبغة الاسلامية .

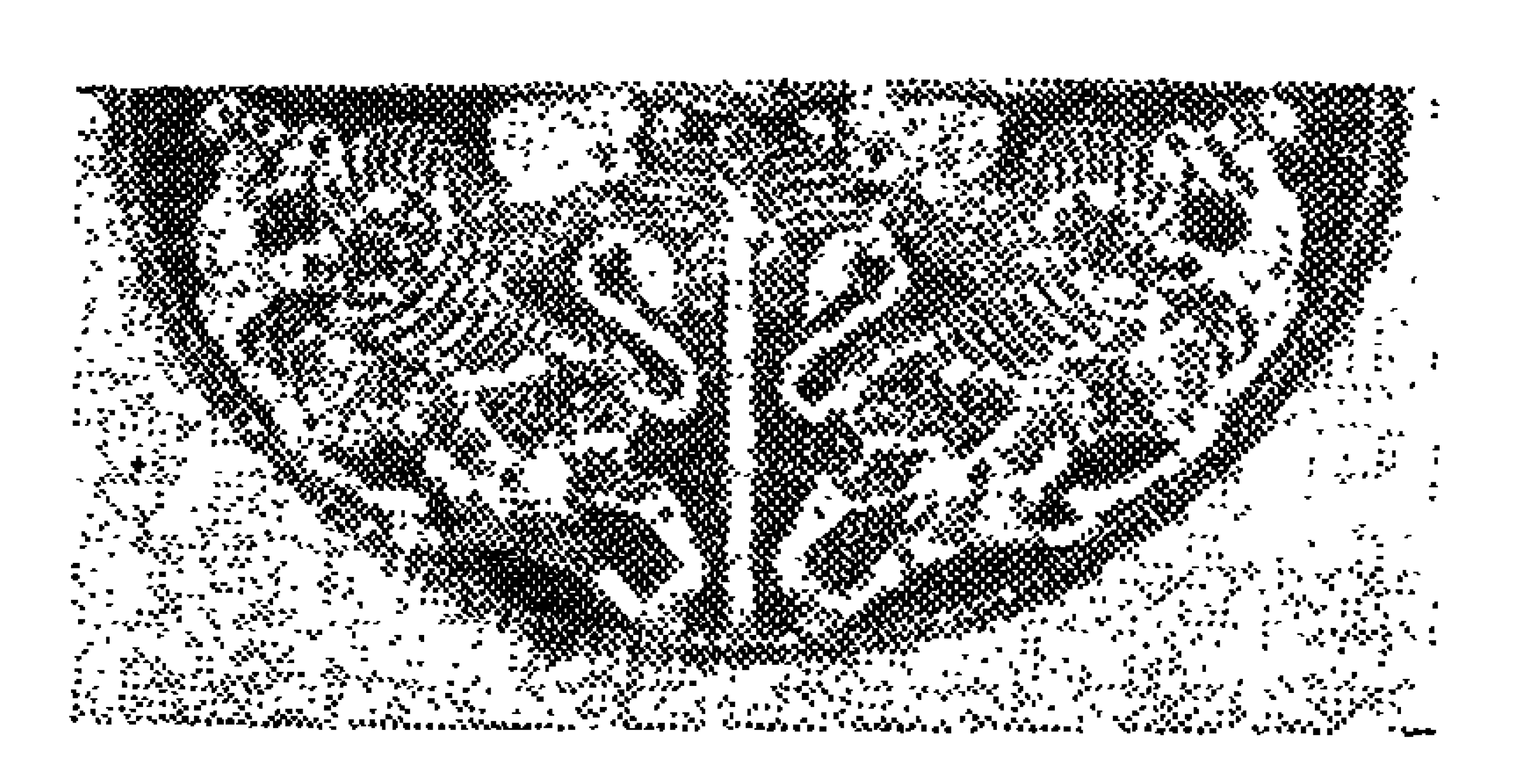
واتخذ الأوربيون أيضا من الأوانى النحاسية المطعمة بالفضة أو الذهب أو بهما معا — التى حذق المسلمون صناعتها — نماذج قلدوها واستعانوا فى ذلك بصناع من المسلمين استقدموا من الشرق ليعلموا الأوربيين فى مدينة البندقية هذه الصناعة .

وكانت صناعة الأقمشة مزدهرة على يد المسلمين فى العصور الوسطى ازدهارا منعدم النظير ، وقد كان فى تقاليدهم مثل كسوة الكعبة وعادة منح الخلع ، وفى ميولهم المختلفة مثل الرغبة فى التكثير من الثياب وتفضيلهم للمنسوجات عند الاهداء ، والتصدق بها على الفقراء فى المواسم والأعياد — كان فى هذه التقاليد وتلك الميول مجال واسع لتقدم صناعة الأقمشة ، الأمر الذى تجلى فى ظهور أنواع جديدة لم تكن معروفة من قبل «[1]» . وقد وجدت المنسوجات الاسلامية طريقها الى أسواق أوربا ، وأثارت فى نفوس القوم هناك دهشة عظيمة عندما تأملوها وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم ، وأقبلوا على شرائها اقبالا شديدا ، وسموها فى لغاتهم بأسماء البلاد التى نسجت فيها ثم أطلقوا هذه الأسماء العربية الأصل على ما أخرجته أيديهم من منسوجات قلدوا بها المنسوجات الاسلامية ، ولا تزال كلمة « الموسلين » «[2]» مثلا المأخوذة من اسم المدينة العراقية « الموصل » تتردد على ألسنة الأوربيين وترد فى ثنايا كتبهم . ولقد تقدمت صناعة المنسوجات فى صقلية على عهد المسلمين تقدما عظيما وظل هذا التقدم مستمرا فى العصر النورماندى الذى وصل الينا منه مثال رائع هو عباءة التتويج التى كان يتوارثها أباطرة الدولة الرومانية المقدسة والموجودة الآن فى متحف الكنوز

(١) الزخرفة المنسوجة فى الاقمشة الفاطمية للمؤلف من ص ١٥ — ٢٠ ومن ٦٢ — ٧٠ (مطبوعات دار الاثار العربية ١٩٤٢) .

(٢) هناك أسماء أخرى يمكن الرجوع اليها فى
Legacy of Islam, p. 104 f.f.

بمدينة فيينا ، وهى تزدان فوق زخارفها الجميلة بنص عربى منسوج على حافتها بالخط الكوفى بخيوط من ذهب ، وقد يكون فى اثباته هنــا فائدة لمن يعنون بالأدب العربى فى صقلية فى القرن السادس الهجرى • « مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والكمال ، والطول والافضال والقبول والاقبال ، والسماحة والجلال ، والفخر والجمال ، وبلوغ الأمانى والآمال ، وطيب الأيام والليــال بلا زوال ولا انتقــال ، بالعز والدعاية ، والحفظ والحماية ، والسعد والسلامة والنصر والــكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » «(١)» ومن صقلية سرت تلك النهضة الصناعية فى المنسوجات الى المدن الايطالية مثل لوكا وفلورنسه والبندقية فأخرجت مناسجها أقمشة قريبة الشبه مما أنتجه المسلمون حتى لقد يصعب فى بعض الأحيان التفريق بين الأصل والمقلد •



٣٤ ـ عباءة التتويج ـ صقلية ـ عن ميجون

وتعد الطنافس الشرقية التى ساهم فى صناعتها الفنــانون والصناع المسلمون معا تحفا فنية بكل ما يحتمله هذا التعبير من معنى : فيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام ، وفيها التنوع بين الألوان ، وفيهــا اليد الصناع الماهرة ، فيها كل مايمتع الحواس ويغذيها : مرآها يسحر العين، وملمسها ترتاح اليه النفس ،وتصميمها وزخرفها يثيران التفكير ويبعثان على التأمل • ولقد أدرك الأوربيون مافى هذه الطنافس الاسلامية من جمال وفن، وقدروا هــذا الجمال الفنى حق قدره ، فأقبل الأغنياء منهم على اقتنائها

(١) Wiet et autres, Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, Tome VIII, p. 184.

ليزينوا بها قصورهم وكنائسهم ، وقد انعكس هذا التقدير بأجلى صورة فى لوحات فنانيهم فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها فى صورهم فبدت الطنافس الاسلامية مصورة فوق العروش أو مفروشـــة على الأرض ، أو منشورة من النوافذ والشرفات ، أو مبسوطة فوق الموائد ، واذا صناعهم يقلدون هذه الطنافس ويحاولون اتقان هذا التقليد «[1]» .

متاحف الفن الاسلامى فى اوربا

كان من الطبيعى أن يجعل الأوربيون الذين توفروا على دراسة الفن الاسلامى وتخصصوا فيـــه وأدركوا الدور الذى لعبـــه فى فنـــون أوربا ــ له بين الفنون الأخرى التى ساهمت فى انشاء حضارتهم مكانا ملحوظا فعملوا على أن يفسحوا لتحفه المختلفة موضعا بارزا فى متاحفهم ، وقد نجحوا فى هذا السبيل ، وقلما نجد اليوم دولة غربية ليس بين متاحفها متحفا أو جزءا من متحف به أمثلة رائعـــة من بدائع الفن الاسلامى ، ولعله من المفيد هنا أن نذكر هذه المتاحف فى شىء من الايجاز لتكون معروفة لمن يحب أن يواصل دراسة هذا الفن .

---

(١) راجع أبحاثا للمؤلف عن طنافس القوقاز (فى مجلة الهلال عدد فبراير سنة ١٩٤٢) ، وطنافس القاهرة فى العصور الوسطى (فى مجلة الهلال عـــدد فبراير سنة ١٩٤٣) ، وطنافس تركيا (فى مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩٤٣) ، وطنافس الهند (فى مجلة الهلال عدد اكتوبر سنة ١٩٤٤)

ففى بلاد اليونان نجد متحف بناكى «١» فى مدينة أثينا وهو يأتى فى المحل الثانى من الأهمية بعد متحف الفن الاسلامى فى القاهرة الذى يعد أكبر المتاحف فى العالم لهذا الفن لما تنطوى عليه جوانحه من مجموعات كبيرة متنوعة من شتى البلاد الاسلامية ومن شتى العصور «٢» .

وفى بلاد المجر نجد أهم التحف الاسلامية فى المتحف الاهلى بمدينة بودابست حيث نشاهد بعض الأمثلة الجميلة للطنافس والخزف التركى وللخزف الايرانى كذلك «٣» .

وفى ايطاليا توجد أهم التحف الاسلامية معروضة فى مدينة فلورنسه فى المتحف الأهلى «٤» ، وفى متحف بارجللو «٥» ومن أجمل مانراه فيهما التحف المصنوعة من العاج أو الزجاج .

وفى فرنسا توجد كثير من التحف الاسلامية فى مدينتى ليون وسيفر ، ففى الأولى نرى فىمتحفالغرفة التجارية «٦» مجموعة قيمة منالمنسوجات الاسلامية ، وفى الثانية نشاهد مجموعة رائعة من الخزف الاسلامى «٧» أما فى باريس نفسها فهناك خمسة متاحف عظيمة بها مجموعات قيمة من شتى التحف الاسلامية هى متحف جوبلان ومتحف كلونى ومتحفاللوفر، ومتحف الفنون الزخرفية ، والمتحف الحربى «٨» .كما أنه يوجد فىالمكتبة

---

(١) Benachi Museum

(٢) لم أذكر فى هذا الثبت المتاحف الموجودة فى البلاد الاسلامية مثل الباكستان وايران والعراق وتركيا والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش لان وجود التحف الاسلامية فى هذه البلاد أمر طبيعى . وانما اقتصرت على ذكر متاحف أوربا التى أتيحت لى فرصة زيارتها ودراسة مجموعاتها ، اما غيرها من المتاحف الاوربية أو متاحف الهند ومتاحف أمريكا الشمالية فقد آثرت عدم الاشارة اليها .

(٣) The Hungarian National Museum.

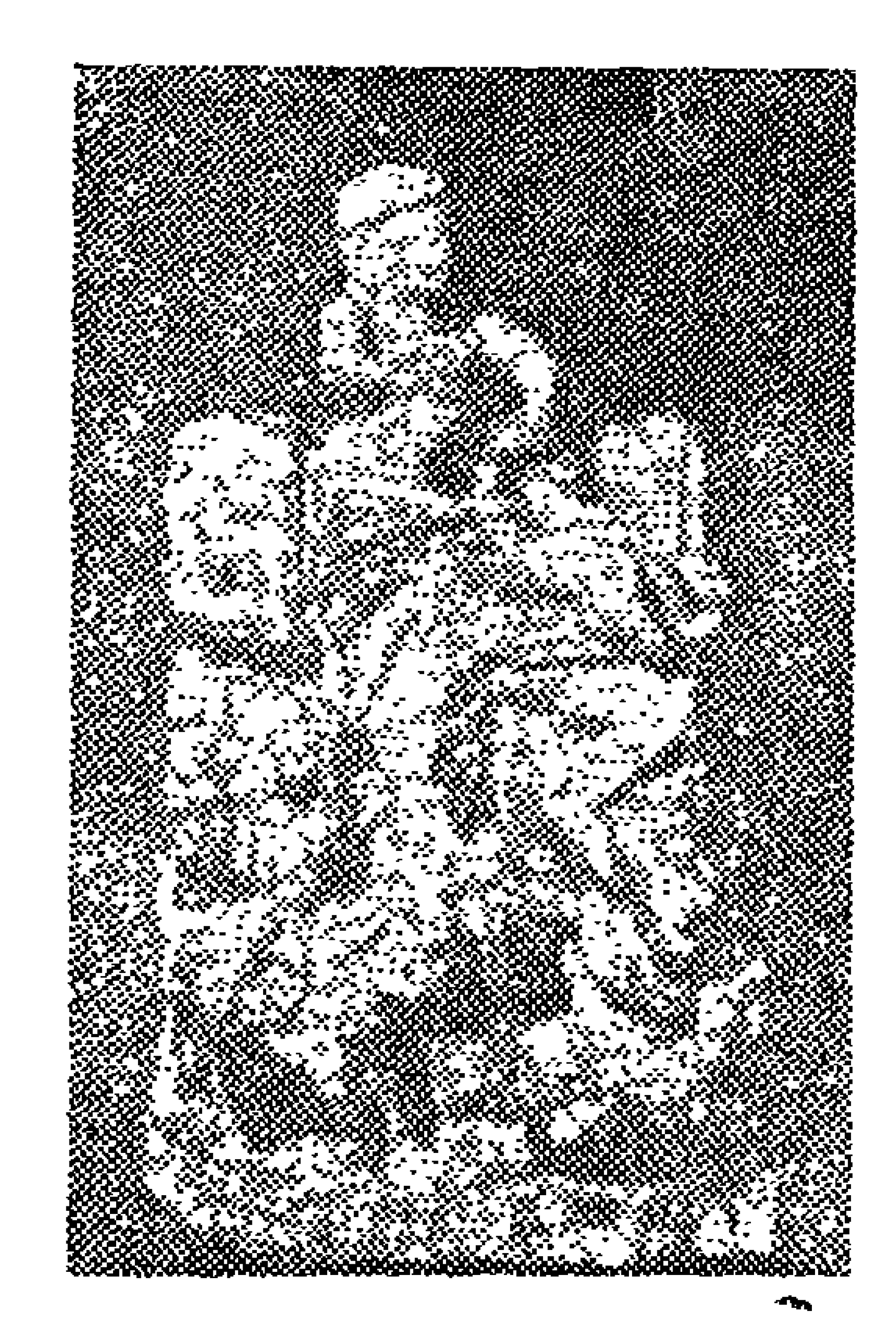
(٤) Museo Nazionale, Florence.

(٥) Museo Bargello

(٦) Musée de la Chambre de Commerce de Lyon.

(٧) Musée de Sevres.

(٨) Musée des Gobelins, Musée de Cluny, Musée de Louvre, Musée des Arts décoratifs.



٣٥ ـ قطعة شطرنج من العاج ـ بالمكتبة الاهلية بباريس ـ عن ميجون

الأهليـــة «١» أنفس مجموعة من المخطوطات المصورة الاسلاميـــة لاسيما الفارسية .

وفى اسبانيا نجد فى مدريد وحدها ثلاثة متاحف فى كل منهـــا مجموعة من الخزف والأسلحة والأحجار والأقمشة الاسلامية هى : متحف الآثار ، والمتحف الحربى ومتحف دون جوان أوفالنسيا دى أسما كما كان يسمى من قبل «٢» . ونجد كذلك فى المتاحف المحلية لبعض مدنها الأخرى مثل برشلونه وقيش وسرقسطة وطليطلة وغرناطة وقرطبة وأشبيلية والمرية قطعا هامة من الفن الاسلامى «٣» .

وفى النمسا نجد فى ثلاثة من متاحف ڤيينا مجموعات اســـلامية عظيمة نخص بالذكر منها مجموعة الطنافس الاسلامية التى لانظير لها فى العـــالم

---

(١) Bibliothèque Nationale.

(٢) Museo Arqueologico, Museo des Ejercito, y Museo Valencia de Osma, o Museo Don Juan.

(٣) Barcelona, Vich, Saragossa, Toledo, Grenade, Cordova, Seveille y Almarya.

والتى نشـاهدها فى المتحف النمساوى للفن والصناعات «[١]» ، ومجموعة الزجاج والبللور الصخرى والأسلحـة فى متحف تاريخ الفن ، ومتحف التاريخ الطبيعى «[٢]» • وفى المكتبة الأهلية بمدينة ڤيينا مجموعة قيمة من أوراق البردى الاسلامية وبعض المخطوطات الاسلامية المصورة «[٣]» •

وفى المانيا يستطيع الانسان أن يجمع بين مشاهدة أمثلة رائعة للعمارة الاسلامية وأمثلة جميلة للفنون الزخرفية على السواء • ففى القسم الاسلامى بمتاحف الدولة ببرلين «[٤]» واجهـة قصر المشتى التى أشرنا اليهـا من قبل والتى تشهد للفن الاسلامى بالنشوء والارتقاء ، اذ تتجلى فى الجانب الأيسر من هذه الواجهة تقـاليد الفنين البيزنطى والساسانى اللذين اعتمد عليهما الفن الاسلامى فى نشأته ، بينما نشهد فى الجانب الأيمن منها فنا جديدا قوام زخارفه الفروع النباتية المنسقة فى رسمها تنسيقا يبتعد بها عن الطبيعة بعض الشىء مما يشعر بأننا هنا أمام فن جديد بدأ يشق طريقه ويخرج الى حيز الوجود • وفى القسم الاسلامى من متاحف برلين نشاهد كذلك قطعا كثيرة من الجص المزخرف الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية التى قام بها الألمـان فى مدينة « سامراء » • وفن الزخرفة الاسلامية الذى رأيناه وليدا فى الجانب الأيمن من المشتى قد شب الآن عن الطوق وأفصح عن شخصيته فى هـذه الزخارف الجصية التى كانت تزين قصور سـامراء • وهكذا يعد القسم الاسلامى بمتاحف برلين من أهم المتاحف التى تسـاعد على دراسة الفن الاسلامى ، على أن أهميته لاتقف عند حد الأثرين المعماريين سالفى الذكر بل ان به الى جانبهمـا مجموعة قيمـة من الطنافس والخزف والأقمشـة والأسلحة وغيرها ترجع الى العصور والممالك الاسلاميـة المختلفة • وفى برلين متاحف أخرى بها الكثير من التحف الاسلامية القيمة من أقمشـة

---

(١) Osterreichisches Museum fur Kunst und industrie.

(٢) Kunsthistorisches Museum, und Neturchistorisches Museum.

(٣) Nationalbibliothek, Wien,

(٤) Islamische Kunstabteilung der Staatlichen Museum.

وأسلحة وبللور صخرى وصور مرسومة على الجص أهمها متحف القصر والمتحف الحربى ومتحف علم الشعوب«[1]» . وفى متحف الفن والصناعات«[2]» فى كل من مدينتى هانوفر ودسلدورف ، وفى متاحف مدينة ميونخ نشاهد مجموعة متنوعة من التحف الاسلامية الجميلة .

وفى بلجيكا نرى فى مدينـــة بروكسل فى المتحف الخمسينى ، ومتحف بورت دى هال بعض التحف الاسلامية «[4]» .

وفى الجزائر البريطانية عدة متاحف تنطوى جوانحها على الكثير من التحف الاسلامية الهامة نخص بالذكر منهـــا المتحف البريطانى ومتحف فيكتوريا والبرت فى لندن «[5]» ثم متحف فتزوليم فى كمبردج «[6]» ، ومتحف اشمولى فى مدينة اكسفورد «[7]» .

وليست المتاحف الأوربية وحدها هى التى تشاهد فيها التحف الاسلامية بل ان كثيرا من الكنائس الكبيرة فى أوربا فيها ــ ضمن كنوزها ــ تحف اسلامية رائعة ، فلقد افتتن المسيحيون بجمال هذه التحف فحافظوا عليها ووضعوها فى أعز مكان لديهم مع مايعتزون به من مخلفات أخرى . وكأنما شاءت الأقدار أن يبقى لنا هذا التراث الفنى محتفظا بروعته لكى نرى فيه شاهدا صادقا على سمو الفن الاسلامى . ومن أشهر هــذه الكنائس فى ايطاليا كنيسة سان مارك فى البندقية ، وفى فرنسا كنيسة سنت آن بمدينة آبت ، وفى اسبانيا كنيسة بنبلونه وكنيسة جيرونا .

---

(١) Schloss Museum, Zeughaus und Museum fur Volkerhunde.
(٢) Muserm fur Kunst und Gewerbe
(٣) مثل المتحف الحربى ، والمكتبة الاهلية ، ومتحف الشعوب .
(٤) Musée du Cinquantaire, Musée Porte de Hal, Brussel.
(٥) British Museum, Victoria and Albert Museum.
(٦) Fitzwilliam Museum.
(٧) Ashmolean Museum.

خاتمـــة

وبعد فقد خطر لى وأنا أهم بوضع القلم أنه قـــد يكون من بين القراء من استهوته هذه الدراسة فأحب أن يستزيد منهـــا ويطلع على تفاصيلها ، وقد يضيق وقته عن البحث عن أمهات الـــكتب التى تستطيع أن تعرضها عليه مفصلة موضحة ، لذلك رأيت من الحق على وقد أيقظت فيه هذه الرغبة أن أرشده الى بعض المراجع التى لم أشر اليهـــا من قبل والتى قد يكون فيها مايحقق بغيته . ولقد حرصت على ترتيبها بحسب تاريخ صدورها لكى يلمس مدى تطور الدراسة وتبلور الفكرة ، وسوف يفتح له كل مرجع من هذه المراجع الباب على مراجع أخرى كثيرة :

Ahlenstiel-Engel (E.) Arabische Kunst, Breslau, 1923.

Kuhnel (E.), Islamische Kleinkunst, Berlin, 1925.

Migeon (G.), Manuel d'Art Musulman, Arts Plastiques et industriels, 2 vols, Paris, 1927.

Marçais (G.), L'Art de L'Islam, Paris 1946.

Dimand (M.S.), A Handbook of Muhammadan Art, New York, 1947.

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .

وثمت مراجع أربعة أخرى لاسبيل الى اغفالها فى هذا المجال : الأول هو دائرة المعارف الاسلامية Encyclopedia of Islam وهى باللغات الثلاث الانجليزية والفرنسية والألمانية وقد بدىء بترجمتها الى العربيـــة ولم تتم هذه الترجمة بعد .

والثانى يتناول ماكتب عن الفن الاسلامى والآثار الاسلامية من ســـنة ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ وقد نشره الأستاذ ماير تحت عنوان :

Mayer (L.A.), Annual Bibliography of Islamic Art and Archaeology, 3 vols., Jerusalem, 1935-1937.

والثالث يتناول ماكتب عن تاريخ الشرق الاسلامى وقد وضعه الأستاذ سوفاچيه وهو :

Sauvaget (J.), Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, Paris 1946

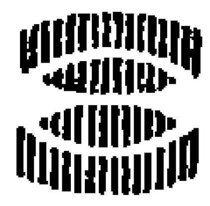
وقد اقتبس من هذا الكتاب الأستاذ صلاح الدين المنجد كتابه المسمى رائد التراث العربي وطبعته دار العلم للملايين سنة ١٩٤٧ .

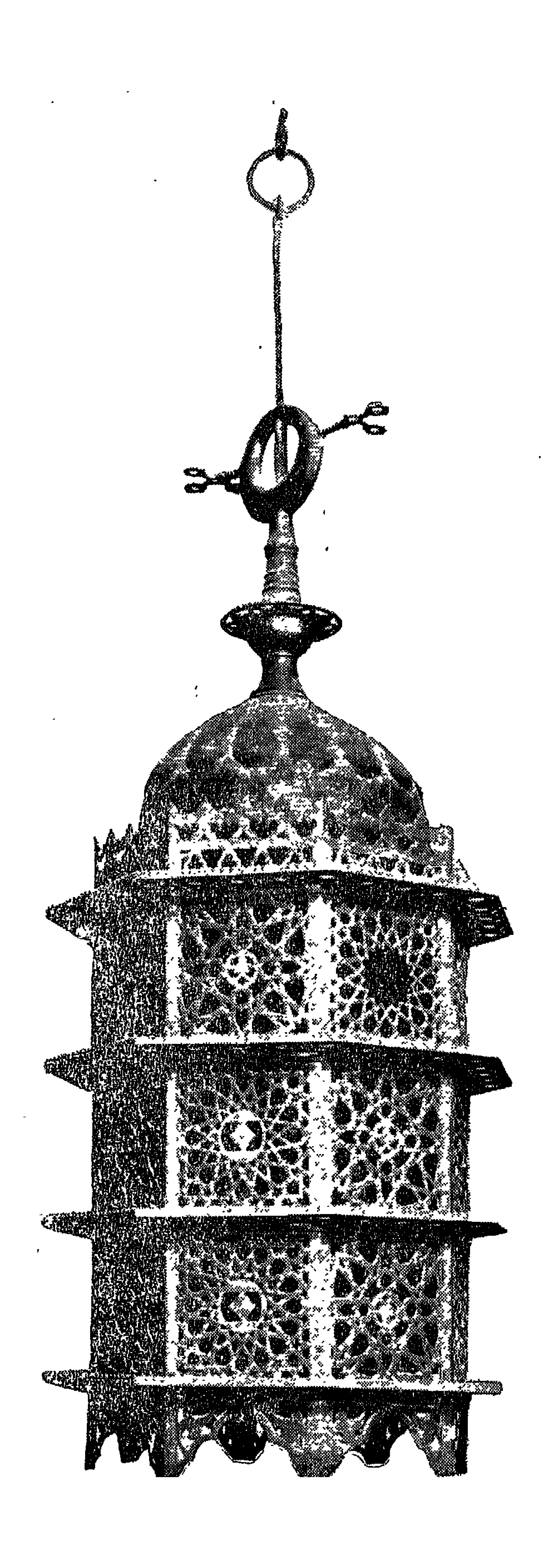
والرابع بحث قيّم نشرته المجلة التى تصدر عن قسم الفنون الجميلة بجامعة متشجن بأمريكا جمعت فيه ماكتب عن الفن الاسلامى مابين سنتى ١٩٣٩ — ١٩٤٥ :

Ars Islamica, The Department of Fine Arts - University of Michigan, vols XIII-XIV, XV-XVI, 1951.

***

والآن وقد وضعت معالم الطريق ، وأنرت سبيل البحث لم يبق الا أن أرجو التوفيق لمن أحب أن يرد هذا المنهل ، وقد رأيت أن أختم هذا البحث بصورة جميلة لثريا (تنور) من النحاس بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وأصلها من مدرسة صرغتمش أحد أمراء المماليك فى مصر (٧٥٧ هـ) .





بيان الاشكال

الغلاف ـ منبر المسجد الجامع بمدينة القيروان بتونس وهو أقدم المنابر الموجودة ويرجع الى سنة ٢٤٨ هـ ويرى وراءه جانب من المقصورة الخشبية التى ترجع الى سنة ٤٣١ هـ . والصورة من تصوير الاستاذ حسن عبدالوهاب كبير مفتشى ادارة حفظ الآثار العربية .

١ ـ صورة الكعبة فى وسط ساحة الحرم المكى وتبدو عليها الكسوة التى ترسلها مصر كل عام .

٢ ـ تخطيط لمدينة بغداد كما بناها المنصور سنة ١٤٦ هـ . ويبدو فى وسطها القصر والمسجد كما تظهر الطرقات التى كانت تتخللها . والصورة منقولة عن كتاب .
Creswell, Early Muslim Architecture vol. II, Oxford, 1940.

٣ ـ ايوان المحراب فى المسجد الجامع بمدينة قرطبة بالاندلس .

٤ ـ ساحة السباع فى قصر الحمراء بمدينة غرناطة بالاندلس . والصورة منقولة عن كتاب Kuhnel, Maurische kunst, Berlin 1924.

٥ ـ علبة من العاج مؤرخة سنة ٣٥٧ هـ (لا سنة ٣٥٨ كما هو مذكور تحت رسمها) وهى فى متحف اللوفر وعليها كتابة كوفية نصها « بركة من الله ونعمة وسرور وغبطة للمغيرة بن أمير المؤمنين رحمه الله مما عمل سنة سبع وخمسين وثلث مائة » . والصورة ليست منقولة عن كتاب كونل ولكن عن كتاب
Jose Ferrandis, Marfiles Arabes de Occidente Tomo I, Madrid, 1935.

٦ ـ صحن مدرسة العطارين بمدينة فاس بمراكش وقد بنيت فى أوائل شعبان من سنة ٧٢٣ هـ بأمر أمير المسلمين أبى سعيد من أمراء بنى مرين . والصورة منقولة عن : Marçais, L'art de L'Islam, Paris, 1946.

٧ ـ ايوان المحراب بالمسجد الجامع فى مدينة تلمسان بالجزائر وقد انشىء سنة ٥٣٠ هـ والصورة منقولة عن المرجع المذكور فى الفقرة السابقة .

٨ ـ صحن ومئذنة المسجد الجامع بمدينة القيروان فى تونس ، والمئذنة أقدم المآذن بعد مئذنة قصر الحير وهى ترجع فى الغالب الى سنة ٢٢١ هـ . والصورة منقولة عن كتاب كونل المذكور فى الفقرة الرابعة .

٩ ـ منظر تخيلى لرباط مدينة سوسه بتونس رسمه F. Girouin. Instituteur à Alger ومنشور فى :
L'Afrique du Nord Musulmane au Moyen-Age (2e numéro Spécial de l'Ecole Républicaine, 1950-1951.

١٠ ـ منظر خارجي لمقياس النيل بجزيرة الروضة بمصر بعد أن أعادته ادارة حفظ الآثار العربية الى الصورة التى يحتمل انه كان عليها ـ والرسم من تصوير الادارة المذكورة .

١١ ـ المدخل الرئيسى لمدرسة السلطان حسن أحد سلاطين المماليك بالقاهرة وقد استغرق بناؤها المدة من ٧٥٧ الى ٧٦٤ هـ . تصوير ادارة حفظ الآثار العربية .

١٢ ـ مصباح زجاجى من عصر المماليك يحمل اسم السلطان حسن سالف الذكر ، وقد كان يضىء بواسطة قراية (كوب) تعلق داخل المصباح ويوضع فيها الزيت والفتيل ويعلق المصباح نفسه بواسطة سلاسل من نحاس تجتمع معا تحت كرة بيضاوية الشكل من الزجاج . ويطلق عليه عادة اسم مشكاة اخذا من الآية الكريمة التى تنقش على هذه المصابيح وهى « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى » . والصورة منقولة عن :

Wiet Creswell et Hawary, Album du Musée Arabe du Caire, 1930.

١٣ ـ منظر خارجى لقبة الصخرة بمدينة القدس فى فلسطين وهى أقدم العمائر الاسلامية وترجع الى سنة ٧٢ هـ . والصورة مأخوذة من كتاب :

Diez, Die Kunst der Islamischen Völker, Berlin, 1915.

١٤ ـ زخرفة من الفسيفساء من أرضية احدى غرف الحمام الملحق بقصر هشام فى خربة المفجر بفلسطين ـ والصورة مأخوذة من :

Baramki, Guide to the Umayyad Palace at Khirbet Al Mafjar, Jerusalem 1947.

١٥ ـ جزء من واجهة قصر المشتى كما هى الآن فى القسم الاسلامى بمتاحف الدولة فى برلين ، والراجح انه من انشاء الوليد الثانى أحد الخلفاء الامويين فى الشرق (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) . والصورة من :

Kuhnel, Mschatta, Islamische Kunstabteilung.

١٦ ـ منظر خارجى لقلعة مدينة حلب فى بلاد الشام . وقد رممت وجددت خلال العصور المختلفة وساهم فى ذلك بعض سلاطين مصر فى عصر المماليك . والصورة منقولة عن :

Glück und Diez, Die Kunst des Islam, Berlin 1915.

١٧ ـ منظر خارجى لمسجد السلطان أحمد (١٠١٢ ـ ١٠٢٦ هـ) فى اسطنبول ، وتتجلى فى الرسم صورة المآذن الست التى لهذا المسجد . والصورة مأخوذة من نفس المرجع المذكور فى الفقرة السابقة .

١٨ ـ صورة مرسومة على الجص فى احدى قاعات قصر الجوسق الخاقانى فى سامراء ، وهى تمثل سيدتين ترقصان وقد امسكت كل واحدة باحدى يديها قنينة طويلة الرقبة وباليد الأخرى كأسا تصب فيه مما فى القنينة ، وبين الراقصتين وعاء مملوء بالفاكهة ، والصورة منقولة عن :

Kuhnel, Samarra, Islamische Abteilung.

١٩ ـ آنية من الخزف الايرانى فى متحف اللوفر وهى من عصر الدولة

السامانية وقطرها ٥ر١٤ بوصة والكتابة باللون الارجوانى المائل الى السواد على أرضية عاجية اللون ــ منقولة عن :

Lane, Early Islamic Pottery, London.

٢٠ ــ جزء من طنفســة من شرق آســيا الصغرى وترجع الى حوالى سنة ٨٠٣ هـ وهى تعتبر من أقدم الطنافس الاسلامية ، وترى فيها صورة حيوانين خرافيين هما التنين والعنقاء ــ وهى فى متحف برلين . والصــورة منقولة عن : Kuhnel, Orient-Teppiche, Islamische Abteilung, Berlin, 1935.

٢١ ــ ضريح تيمور فى مدينة سمرقند من الخارج وهو يرجع الى سنة ٨٠٨ هـ . والصــورة منقولة عن اللوحة رقم ٤١٩ من الــكتاب الجامع للفن الايرانى الذى وضعه بوب بمعاونة عدد كبير من علماء الآثار الاسلامية :

Pope, A. Survey of Persian Art, Oxford- 1938., VI vols

٢٢ ــ واجهة ايوان المحراب فى مسجد الشاه فى مدينــة أصفهان بايران والصورة منقولة عن نفس المرجع المذكور فى الفقرة السابقة (اللوحة ٤٦٥).

٢٣ ــ منظر خارجى لضريح تاج محل فى مدينة أجرا بالهند ــ والصورة منقولة عن المرجع المذكور فى الفقرة (١٦)

٢٤ ــ المسجد الجامع فى مدينة سيان فو بالصين. والصورة منقولة عن :

Kuhnel, Kunst und Volkstum in Islam, (Sonderabdruck aus : Die Weld des Islams, N. S. vol. I, Nr. 4, 1951). E. J. Brill Leiden

٢٥ ــ صور للبسملة بالخط الكوفى فى عصور مختلفــة من رسم المرحوم الاستاذ يوسف أحمد فى سنة ١٣٢١ هـ ، والسطران الاول والثانى من طراز الكوفى فى القرون الثلاثة الاولى بعد الهجرة . والسطر الثالث من الخط الكوفى بمسجد الحاكم ، وبعد البسملة « الله ربى » . والسطر الرابع من الخط الكوفى بمسجد سنجر الجاولى ، وبعد البسملة « الحمد لله » . والسطر الخامس من الخط الــكوفى بمسجد السلطان حسن ، وبعــد البسملة « رب اشرح لى صدرى » .

٢٦ ــ نموذج للخط الكوفى المربع منمسجد السلطان حسن « لا اله الا الله محمد رسول الله » . والصورة منقولة عن بحث ألقى فى المعهد المصرى فى مارس سنة ١٨٩٠ .

Walter Innes, Inscriptions Arabes en caractères carrés.

٢٧ ــ طغراء السلطان عبد العزيز بن محمود خان المظفر دائما ــ نقلا عن:
Lane - Poole, Turkey, (The Story of the Nations), London 1888.

٢٨ ــ جلدة كتاب من الاندلس ترجع الى القرن التاسع الهجرى فىمتحف الفن والآثار بمدينة برشلونة ــ والصورة منقولة عن الكتاب المشار اليــه فى الفقرة (٤) .

٢٩ ــ العناصر السبعة الرئيسية التى يتكون منها « المقرنص » . وهى مستمدة من المثلثين والربع المرسومة الى يمين الصورة ، أما الرسم الواضح فى الجانب الايسر فهو يمثل المقرنص بعــد أن تكون من هذه الاجزاء ، وهــذا الرسم منقول عن :

L'Art Musulman (La Grammaire des Styles) Paris, 1926.

٣٠ ــ «الأرابسك» أو التوريق كما يرى على القاشانى من تربة فخرالدين على بمدينة قونية من القرن السابع الهجرى ــ والصورة منقولة عن :

Kuhnel, Die Arabaske, Wiesbaden, 1949.

٣١ ــ تمثال من البرنز يمثل جسم أسد ورأس نسر وله أجنحة صغيرة وعلى صدره ورقبته وظهره مايشبه الزرد ، وعلى الجزء العلوى من سيقانه دروع صغيرة عليها صورة أسد ونسر وعلى التمثال طراز من الكتابة الكوفية . وهو ينسب الى العصر الفاطمى وموجود الآن فى مدينة بيزا فى (كامبوسانتو) وارتفاعه ١٠٥ سم وطوله ٨٥ سم . والصورة منقولة عن الكتاب الذى ذكرناه فى الفقرة (١٦) .

٣٢ ــ صعود النبى صلوات الله عليه الى السماء ليلة اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، والصورة موجودة فى مخطوط « المنظومات الخمسة » للشاعر الايرانى نظامى وطولها ٣٠ سم وعرضها ١٩٫٥ سم ، ويشاهد فيها الملائكة سابحة فى السماء تحف بالنبى ويتقدمه جبريل عليه السلام ، وهى من تصوير المصور المشهور سلطان محمد الذى كان يعيش فى ايران فى القرن العاشر الهجرى ، والمخطوط موجود بالمتحف البريطانى والصورة منقولة عن :

Kuhnel, La Miniature en Orient, traduct:on de Paul Budry, Paris.

٣٣ ــ نشاهد فى السطر العلوى والذى يليه نصين قوطيين يرجعان على التوالى الى سنتى ١٣٩٩ ، ١٥٠٥ م ، وفى السطر الثالث الى اليمين كتابة قوطية كذلك ترجع الى سنة ١٥٥٠ م وعلى يسار هذه الكتابة القوطية نرى كتابة كوفية فى دار الآثار العربية ترجع الى العصر الفاطمى كما نرى الى أسفل كتابة كوفية من مسجد السلطان حسن ترجع الى عصر المماليك . والصورة منقولة عن :

Legacy of Islam, edited by the Late Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, Oxford, 1947.

٣٤ ــ لون هذه العباءة أو على الاصح الحرملة ارجوانى ونرى فى وسطها نخلة على جانبيها صورة أسد ينقض على جمل وأغلب الظن أن الرسم يرمز الى تغلب النورمانديين على العرب وطردهم لهم من جزيرة صقلية وطراز الكتابة الكوفية الذى يجرى على حافة هذه العباءة منسوج بخيوط الذهب ، والصورة منقولة عن :

Migeon, Manuel d'Art Musulman, vol. II, Paris, 1927.

٣٥ ــ تمثل هذه التحفة العاجية ملكا على ظهر فيل يحف به حرس من الفرسان ، وعلى خرطوم الفيل رجل قد أمسك بيديه نابى الفيل ، وعلى القاعدة كتابة كوفية نصها « من عمل يوسف الباهلى » . وقد تضاربت الاقوال فى عصرها وفى مكان صنعها (راجع ص ٢٠٠ ــ ٢٠٢ من كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور ونشر الدكتور زكى محمد حسن) . والصورة منقولة عن المرجع المذكور فى الفقرة السابقة فى الجزء الاول منه .

كشاف

فهرس

الناشر

دار المعارف بالاسكندرية